محمد المزيني
مُفارق العَتمة
رواية
دار بسمة

# مفارق العتمة

اسم الكتاب: مفارق العتمة

اسم الكاتب: محمد المزيني

نوع العمل: رواية

الرقم الدولي EBIN: 16-1-294-231222

الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني

الطبعة الأولى: 2023م / 1445هـ

للتواصل مع المؤلف: M.almoz2020@gmail.com

الهاتف: +966554231227

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)

Darbassma1@gmail.com

المملكة المغربية

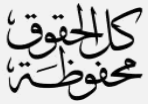

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

# مفارق العتمة

رواية

محمد المزيني

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

# مفارق العتمة

صفحات تنضح برائحة أحلامنا في نزق إلى مستقبل نجهله. يشدنا الماضي حيث كانت ولا تزال خطواتنا تدب بين جنباته. نحلق كالفراشات. نزف حكايات صغيرة مختزلة تملأ فراغات عقولنا، وتهوي بنا بين عقارب الساعات غير المحسوبة. تعصرنا.. تشكلنا.. تقذف بنا في رحم عالم نراه يكبر كالمنطاد، يحجب الكون، فنشمر عن سواعدنا بشغب. نمتطي صهوة أحلامنا التي لا تلبث أن تنفجر كفقاعة صابون.

تعترينا خيبات صغيرة؛ نقفز فوقها سريعًا. نلملم أوصالنا المبعثرة كأهازيج ليلة عرس موشحة بخيوط ضوء القمر؛ فنبدو كأطياف ليل مهجور تصفر به الريح بين مفارق العتمة القابعة في وجوم وتبتل وسط

الصحراء، حيث الرمضاء ووهج الشمس الحارقة تلفح الوجوه، وحيث الرياح المعتسفة تذرو حبات الرمال.. تحملها من صحراء النفود والربع الخالي مرورًا بالصمان، حيث تختلج المشاعر الصامتة فتنبض بالحلم؛ ملهمة الذاكرة الشعبية بمعنى الصمود أو لربما اليأس أو الجحود، بمشاعر تتحرك كحبات الرمل على أكف الرياح تكظمها الصدور بتحدٍّ وعناد..

مثل بركان يتحفز ليثور. لا تفك رموزها أو تحل معانيها إلا ساعة انتشاء حينما يدق لهيب النار أوصال خشب (الأرطا) أو (الغضا) أو (السمر).. وحينما تصدح فناجين القهوة بأنفة وكبرياء مصطدمة بأنف الدلة الأشم المسكونة بعنفوان الكرم.. هناك ترقد المدينة المكدودة تحفها الرمال من جهاتها الأربع. تتكور على نفسها بخطوط وتقاسيم أزقة متشابكة تراها من بعيد تنبت من الرمال في اصطبار، وتبتل تحنو على خرير المياه تنتزعه مكنات الري الحديثة، فلا يخبو صوتها إلا حينما تلفظ الشمس آخر أنفاسها على صفحة الأرض الموشاة بلون الذهب وحمرة النار، فلا يبقى منها سوى ظلال معتمة تبعث على القشعريرة.. تلك كانت مدينتي (الرياض)، وفي جزء منها حيث أقطن.

# آيات الخوف والجوع

يمتد الشارع الغارق بالمياه الطافحة من عنق الطريق المؤدي إلى الفرن المقابل تمامًا لسوق الخضار (الحلقة)، حيث تسوقه روائح عفنة كعلامة فارقة لا تغرب عنه صيفًا أو شتاءً بتعاريجه وتشابكه، بلا حدود أو أبعاد أو مسافات، بلا ملامح تميزه في الشكل، لكنه يبدو أمام أعيننا مغارة نتيه في دهاليزها. نفيق من نومنا باكرًا.. نفز بلا تراخٍ.. نبحث عن وجوهنا المرسومة على قارعة الطريق، فلا يفت في عضدنا أو يثبط من عزائمنا لفيح الحر أو لسعات القر المشوكة. ننطلق. نرفرف كالعصافير بأجنحة نسجتها أنفاسنا التي لاتزال تقطنها رائحة الليل، نسابق أشعة الشمس الملقاة توًّا على حافات الأزقة؛ متنقلين بين زواياه المتناثرة بين

نتوءات وتغضنات المنازل الطينية المتلاصقة، بلا انتظام أو مبرر.. وعند أقرب حافة تطالها وشوشات الشمس الناعسة تلتصق أجسادنا الصغيرة انتظارًا لساعات الانطلاق، بعد أن تشحذ أوصالنا بالطاقة اللازمة عوضًا عن وجبة الإفطار التي قلما تناولناها في الشتاء. تجتاحنا رغبة عارمة في مطارحة رياح الشمال العنيدة بأسمالنا التي لا تكاد تسترنا! ليس من قبضات البرد المهلكة، وإنما من أن نبدو أنصاف عراة نبصم يوميًّا بأقدامنا الجرداء على وجه الأرض التي تسكنها المستنقعات الآسنة.. مذ عرفنا طريقنا إلى الشارع ونحن نسابق الريح إلى دفء الشمس الزاحفة خلف هالات سحائبية نكدة، حيث يستقر الخوف والقشعريرة اللذان يكادان يستلان أرواحنا فزعًا ووجلًا من سياط تلوح بها جحافل الغيوم، فتتراءى لنا كقبضة توشك أن تحكم مسامات الكون، بزفرات تعلن عن ليل يجتر لواعج برد قارس يبشر بالحمى ونوبات السعال المتواصل، فنلتف متحلقين حول النار المشتعلة من قطع خشب الأثل كقطةٍ ترضع صغارها، نراقب تجمر الحطب انتظارًا لساعة الصفر للخلود إلى النوم، في تشكل خرافي مع هالات الغبار العالقة بأثوابنا الصدئة، ورائحة طين لازب، تتنفس بها تشققات وندوب تحتل المساحة الكبرى من منزلنا الطيني المكون من غرفتين تحتضنان غرفتين أخريين ملحقتين بهما تنقصهما التهوية الكافية لاستنشاق هواء نظيف..

هناك في ركن قصي إضاءة مرتعشة، لا تكاد تسمح إلا ببصيص ضوء مهترئ، يغذيها سلك كهربائي ممدود قسرًا، يتدلى في الطرف الأخير منه قابس يهمز تقريبًا الساعة الثامنة؛ إيذانًا بإسدال الستار عن يوم محموم باللعب والمشاغبات.. نشرع في استحضارها والضحك بقهقهات مسموعة على بعض المقالب الباعثة على الضحك، ثم نغمض أجفاننا وأفواهنا مشغولة بحكايات لم تنته بعد؛ تاركين لأحلام الرقاد مهمة استكمال رحلة الحكايات المتعاكسة مع واقعنا.. تبدأ تصفية الحسابات، تنقلب المعادلة، يبيت المظلوم ظالمًا والمضروب ضاربًا والمهزوم بطلًا.. كنت أفضل النوم دائمًا في الزاوية القصوى من الغرفة الوحيدة المخصصة لأيام الشتاء، الراقدة في جوف المنزل بلا نوافذ سوى نافذة صغيرة معلقة في السقف مقابلة تمامًا للوجار (مكان إشعال الحطب الرطب) لتسريب أدخنته الرديئة، وكأنها تشكيل خرافي يستمد سماته من عالم سرمدي يستيقظ مع الأموات عنوة مفضيًا بالأحياء إلى عالم البرزخ.. لا أدري كيف أتوجس هيبة النوم؟ ربما مع الخوف الملبد بين أجفان الناس!

كانت الغرفة القصيَّة توحي بأكثر من رائحة تكوين عجيب، يستمد خصائصه من مخلفات الزمن الذي يلف الجدران والأسقف المصنوعة من الجريد وخشب الأثل.. وفي ريعان ذلك الصمت الشاحب

تبحر عيناي في صميم تكويناته الخرافية، فترتسم أمام عينيَّ المنهكتين دوائر حمراء تبتلعها أخرى زرقاء في جدلية لا متناهية، تفرز من أحشائها أشلاءً تتكور بين مسامات الظلمة؛ تنتابني قشعريرة الخوف.. يهتز بدني الصغير المنهك، تتمطى بأشكال هلامية تنتزع أوصالي.. لا يبدده سوى أصوات متعاكسة تتسلل عبر الشقوق؛ مخترقة تفاصيل الخوف والقشعريرة المنبعث من المنزل المجاور ذي الغرفة الملاصقة تمامًا للغرفة التي كنت أنام فيها.. يتناهى إلى سديم أذني بكاء.. صراخ متقطع.. تأوهات.. تأخذني نشوة تنفض غبار النوم الراقد في أصالي التي شذبها ركضنا المتواصل عبر الأزقة والطرقات، تعفر جوانحي أصوات مختلطة.. ضحكات.. قهقهات.. جلبة جنون، ثم أنفاس مكدودة تفتح أمامي نافذة من تضاريس أيامنا المتيبسة في عروقنا، تحتضن حكايات تنقشع تفاصيلها كغمامة عقيم تلوكها ألسنتنا بلا حياء..

انتشلت من ذاكرتي الصغيرة وجه شعلان المخمش، وهو يمور بين الرجال بعلامات انتصاره على لبؤته سوير.. يوم خطبها اندست في حجر أمها لا تبرحه، وليلة دخل عليها أصبح رجلًا وصارت سوير امرأة.. تلاشى صوتها إلى أعمق مسافة، وارتحل وجهها النابض بالحياة تظلله خيمة شعر نازفة بكل اتجاه.. في كل يوم له معها حكاية، يتلو منها ما ييسره المقام، نتصيدها بأذاننا المشنفة ونحيك منها صورًا تحمّي

عروقنا قبل هجوعنا.. نبصر فيها شعلان يلاحق شهوته الجامحة بين تفاصيل سوير المكتربة.. خوفًا وحياءً.. تحولت إلى نمرة مزقت ثياب عرسه وخدشت وجهه.. ظلت الليلة بطولها تجلي غرائزها المكبوتة بوحشية متناهية، مستنزفة قواه المكتنزة لمثل هذه الليلة بين كر وفر.. لم تسلم عقالها إلا بعدما حل شعلان إزارها بعنف؛ قاصدًا عنوة تكحيل سيفه بغمده، ملقيًا برأسه بين هضابها، سهولها وشعابها.. ينحدر الصوت المجلجل بين جنبات غرفة عرسه، ينتزع شعلان سهامه، ويغرقها بفورة الدماء المتدفقة، رافعًا راية الانتصار بين أكتافه، ثم يتغلغل سابحًا بين أمواج هادرة.. ترمقه سوير بعينين واجفتين وشفتين مرتجفتين تتوسل إليه.. تحثه أن يطأ الأرض.. يحرقها.. يفجر ينابيعها.. ألا ينسحب حتى ينتزع فتيل المعركة نهائيًا ويسدل الستار عن أول الفصول وأهمها، بانتظار ساعات أخرى شبقة محمومة ندية، ومتكسرة كأمواج البحر..

يفجر الصوت ذو الدرجات الظلية المبعثرة مكنونات ذاكرتي المنحوتة على قارعة الليل الملتحف بالظلمة، ترسل معها كوابيس نزقة.. أظل معلقًا في فيافيها العابسة كشرنقة تحملها أجنحة الصمت اللعين.. تنكشف أمدية العتمة القابضة على أكتاف الكون متسللة إلى أقصى مساحة من أنحاء جسدي المنهك.. تحملني بين ذراعيها تسلمني يد الإرهاق والتعب عنوة إلى نوم عميق لا تنقطع وتيرته إلا مع حشرجات

صوت أبي القاطنة أبدًا في أسماعنا، تزفها ذبذبات صوت المؤذن المرتعش مستبيحًا خلجات السكون كإعلان ابتدائي عن ميلاد يوم جديد.. أترنح تحت وطأة هواجسي الدفينة تحت أنقاض الإرهاق.. كيف يمكن أن أحمل ركامي من نوم عميق.. يخترق صوت أبي حواجز العتمة المخيمة على كياني فأنهض محمولًا على أكف الأحلام متثاقلًا وفي ذهني صورتان تبعثان عليَّ النكد: الماء المتجمد سينسكب حتمًا على أطرافي الدافئة، تنتابني رعشة تكاد تقبض أنفاسي والوجه الآخر: البرد القابع خارجًا بوحشية وحنق، وكأنها الضريبة اللازمة مقابل ساعات أحرقتها أنفاسنا، تدثرها أغطية مبللة بروائح قديمة.. فما أقسى الاصطبار على تلك اللحظات القميئة! أجتازها والخوف يرفرف بين جوانحي خشية ألا تقع عين أبي الفاحصة على جسدي الناحل بين الصفوف الأولى من المسجد.. يتمخض هذا التفكير الموحش عن رغبة ملحة في مواصلة اجترار الأحلام العذبة.. تتقاطع هذه الرغبة العارمة مباشرة مع عبارات والدي الهادرة، منذرة بشر مستطير، ويل لمن تخلف عن الصلاة مع الجماعة، لا مفر من مجابهة غواية التلذذ بدفء وثير..

ثمة وجهان قانطان يحملان صوتًا مشحوذًا بالوعيد، ماء متجمد وشارع متجهم من شدة البرد.. ووجهان آخران يلفهما خوف كانا يرسمان ملامح شخوصنا الطفولية.. خوف من الظلمة الراقدة في رحم

الكون يلدها الليل وتحتفي بها الريح الصافرة، وخوف من الله.. كنت عندما أخافه أتبتل إليه بالذكر، أتحفز إليه بكل جوارحي، وسرعان ما يتلاشى الخوف أمام تقاطيع وملامح وجه أبي الصارمة تضيق ساعة فيحتل الخوف من أبي المساحة الكبرى من نفسي.. أقتحم قلبي الراجف بسيل من الأسئلة: لماذا أخاف أبي؟ هل لأني أحبه؟ ولماذا أحب الله؟ هل لأني أخافه؟ وعند سماعي تراتيل إمام المسجد الندية وهو يقرأ كعادته أجزاءً من سورة يوسف تهدأ روحي وتطمئن.. لا أدري هل هي طمأنينة من عقاب أبي لو تخلفت عن الصلاة، أم لأن هذه السورة كانت تناجي عقلي الصغير بما تحمله من مضامين إنسانية؟

قصة الطفل الذي فقده أبواه بمؤامرة من إخوته.. شيء ما يسقط كحجر صغير في ماء راكد فيحركه على شكل دوائر متناغمة.. كانت تلاوة القرآن بصوت الإمام العذب تملأ رأسي المفعم بما يفيض به من أسئلة شائكة.. كانت بقدر خطورة البوح تشعل داخلي حرائق تومض بألسنة لهب يتغذى من أثداء الجحيم وسقر الملعونة.. أرتد هاربًا..

أخفق بروحي هائمًا إلى أقصى مسافة تضعني على أجنحة الأمن بعيدًا من لعنات الأسئلة المقيتة، مزيحًا عن دماغي الصغير المنفتل على حجارة مشذبة سوداوية دنف الولوج في دهليزها، فقد تعلمت الدرس

باكرًا.. تجاذبتني صور حية حفرت تعاريجها في ذاكرتي بالمقاس نفسه الذي انطبع على وجه زميلي في الصف، من آثار كفٍّ غليظة رعناء ورمت صدغه أيامًا.. كان إلى قبيل تلك اللحظة المارقة من حياته مملوءًا بشغب الأسئلة والتوفز.. يرسم من روحه صورًا حالمة لفضاء تعشقه طيور حرة سارحة في فضاء بلا حدود، مكتحلة بزرقة تمخرها سحابات مراوغة.. كان أسامة يتعطش دائمًا في محاولات دائبة لإيقاظ التفاصيل الغافية بين جوانحه.. فقط إلى قبيل الخط الاستوائي الفاصل بين حياتين، يوم هوت يد أبيه الثقيلة على وجهه الصغير..

كان سؤاله صغيرًا سقط من لسانه سهوًا (من خلق الله؟) جرف معه بقايا الأسئلة وغسل عاره، لم يكد يصدق أن الأشياء تختلط فجأة وتفقد هويتها في غضون ثوانٍ محسوبة.. جرب ذلك بنفسه، حيث استدار إلى جهات الأرض الأربع.. لتختلط تكوينات الوجود وألوانه تسحق بين عينيه حتى السقوط في جب غسل فيه أدرانه!!! ليردد: (أنا أكرهه)، ثم يستدرك: (لا أحبه).. لم يكن الخوف والمقت حليفين يهادنان قلبه الراجف.. زاد وجيبه لحظة، كشر أستاذ الفصل عن هوية القمع من وجهه الممتلئ بتقاسيم البلاهة والتشفي عندما صفق لانتصار عنجهية الأب قائلًا:

– هذا أهم درس لك يجب أن تحفظه عن ظهر غيب ولا تنساه.

تمنيت وقتئذ لو انتفخ حجمي الصغير، وتورم المارد داخلي لأجرد هذا المعتوه المتعجرف من أسلحة الفتك والتهديد ثم أوسعه لكمًا وضربًا؛ لم يكن يرانا سوى كلاب تستحق الضرب بالنار، وحشرات حقيرة جديرة بمواد سامة.. يمر كل ذلك بمباركة تامة من إدارة المدرسة، وغياب كامل وتخلٍّ مطلق من أهالي الطلبة الذين لا يسعهم سوى ترديد مقولة همجية مفادها (لكم اللحم ولنا العظم)، وكأنهم يقدمون أجسادنا الصغيرة لجزارين! شيء ما يُعزى للتربية والتقويم الذي لا يستقيم بمعزل عن العنف.. تداعى إلى ذاكرتي مشهد آخر ضحيته أخي الأكبر، وهو عائد من المدرسة يجر قدمًا ويعرج بأخرى من آلام مبرحة تنوء بها كلتا قدميه، نتيجة عقاب شديد وعصًا ملهوفة تؤز بين قدميه.. تلك اللحظة موجعة إلى حد القهر.. استطار فيها عقل أمي وقلبها.. صارت تخفق كحمامة مصوبة، وبصوت محشرج مبحوح سكنته غصة صاحت:

– ما بك يا ولدي؟

– علقني الأستاذ بالفلكة..

– لماذا يا ولدي؟

تبعثرت ذراتها بين قدميه تلملم آلامه كحبات عقد منثور، تعضد له وتحمل آهة الألم عنه وترعف باكية.. وأبي لا يحرك ساكنًا.. الأمر حتمًا لا يعنيه فلا يحرك له جفنًا، بل اكتفى معلقًا:

– لعله أحدث شيئًا مستنكرًا، فنال عليه جزاءه.. واسترسل:

لا تشغلي بالك كثيرًا دعيه وشأنه.. تعالي لتضعي لنا لقمة نأكلها..

المسكينة لم تعبأ بأمر والدي الذي طالما رأته مقدسًا، فمصابها جلل أفقدها وعيها إلا من أخي.. وجهه الممتقع يوغل حريقًا في دمائها.. نقلته إلى إحدى غرف المنزل الداخلية تجتر صوتها المفجوع تقذف به إلى كبد السماء..

أمام هذا المشهد قال أبي بصوت خفيض:

– جنت أمك؟!

أضمرت في نفسي ألمًا، وحسرة وصراخًا تهدر به أوردتي.. كدت أتميز غضبًا على الكلب أستاذ الصف.. أبي وحده وقف متجلدًا كصخرة جاثمة بسلام.. وكما كان يردد:

– أُحِب أن أراكم رجالًا يُعتمد عليكم؛ فالحياة صعبة..

لا يقبلنا بهذا الخور؛ لذلك آثرت لزوم الصمت كي لا أبدو أمامه ضعيفًا خائرًا.. خشيت أن يبدد نحيب أمي المسكينة سكينتي، فلم أكن أسمع نحيبًا قط مثلما جادت به حنجرتها وعيناها تفيضان من الدمع.. لا أريد أن يحس ذلك مني، كانت تراوده رغبة في أن أصبح ذات يوم شيخًا يتباهى به أمام الناس، فمنذ أن ألهمتني ذاكرتي بآية من سورة الملك نسيها الإمام في الصلاة، وأنا لا أستطيع الفكاك من إسار تلك الثقة.. كانت منحته المباركة لي، وكان حافز إمام المسجد لإبداء رغبة أكيدة في تبني موهبة الحفظ لديَّ، موصيًا أبي بضرورة إلحاقي في صفوف حلقة تحفيظ القرآن.. لم أكن بمنجاة من قراره الحاسم لركوب الصعب، ولزوم حلقة التحفيظ، حيث كانت تعقد في المسجد عصر كل يوم، فلطالما كرهت الانتساب إليها وتجافيت عن مجرد تداول ذكرها، فهي تعيد صياغة وجه المدرسة القميء بلغة مختلفة؛ بيد أن الأسلوب ذاته يعتمد على العصا (الخيزران) في شحذ همة الطلاب؛ بل إنها المعين الأول الذي يؤمن به الشيخ ويطبقه عمليًّا، لجعل الطلاب يحفظون سريعًا وكما يردد:

- الله يعينني لحمل أعباء الأمانة وتحفيظكم القرآن الذي لو أُنزل على جبل لتهدم وتصدع؛ قراءةً وتجويدًا.. إذًا لا بد من أن تتحمل أجسادنا الصغيرة لهيب سياط النقش (لقب أُطلق على الشيخ معلم القرآن، لكثرة الندوب على وجهه من آثار مرض

الجدري).. النقش لا يحبذ أدنى صوت يصدر منا، وكان يردد عبارته المشهورة: (بلا نفس).. كانت وجوهنا الشاحبة بأعين شاخصة تلعنه، أي نفس أيها القميء، اخرس أيها الصوت المنقوش كوشم قديم، آه لو أبصق في وجهه تعبيرًا عن كرهي له، لولا ذلك الخوف من والدي الذي يكبلني، وثقة إمام المسجد بي، لما ترددت لحظة واحدة.. وفي ريعان هذا الكره المستفز بين جموع المتحلقين نصف دائرة حيث ترتمي الأعين على الأعين والأنفاس تشدها الأنفاس يصرخ (النقش): أسمعوني صوتكم اقرأوا، فنستطير هلعًا تعلو أصواتنا كطنين النحل، ليسجل بذلك هدفًا يترقبه لترتسم بين شفتيه الغليظتين ابتسامة خبيثة مشحونة بالتشفي.. تحرقها أحيانًا تصرفاتنا التي تنم إما عن هلع أو تحدٍّ له، فيعمد أحدنا لعصر بطنه طلبًا لضرطة فراغية مدوية، يستطير الشرر من عينيه الحانقتين، نسجل علامات انتصار غير آبهين بما سيحدث فيما بعد فيصيح غاضبًا:

- من فعلها.. ينهض!

لا مجيب، يخيم الصمت وتحلق الرائحة كدليل انتصار، وضحكاتنا تتسلل متدافعة تحرضنا على مواصلة لعبة التحدي؛ قتلًا للوقت وعنادًا له ثم يصرخ:

إن لم يعترف الفاعل فستنالون العقاب بلا استثناء، فنقبل التحدي، ونحن نعلم يقينًا أن لغة العصا ستحل إشكالًا لنا وله، وقتئذ سيفك أسرنا ويتركنا نرحل ما دام من أحدث في المسجد من الطلبة مجهولًا، مما يؤكد انتصارنا للمرة الثانية على التوالي.. تتشكل كل هذه الصور والمشاهد أمام عيني ويحتضنها رأسي الصغير.. يفككها ثم يعيد تركيبها بعيدًا عن الأعين المتطفلة، أحتفي بها كأجزاء ترتبط بالخوف الذي يسكنني، فهي محفوفة بالأسئلة الشائكة ويزداد وميضها مع ساعات الصباح الناعمة، حيث يتوقد الذهن وتستعمرني النشوة.. وأنا أشق طريقي بعناد إلى المدرسة، كنت أسأل نفسي سرًّا: لماذا نحفظ القرآن ونعاقَب عقابًا شديدًا على أي تقصير؟ يرتد صوتي: اخرس أيها الصوت اللعين، أراه يتدلى برأسه يتمطى بين عيني.. أعرفه، هو الشيطان الرجيم..

– ألا تكفي مقررات المدرسة الثقيلة؟ يأخذني الصوت اللعين يخاتلني بهذه الأسئلة الخبيثة المواربة كزورق يتأهب لشق عباب

موج هادر، ولا يدري إلى أي عمق سيأخذه أو ساحل سيودعه؛ لكنه لا يلبث أن يتسلل مع جلجلة قرع جرس المدرسة الذي يكاد يهز جدران منازل الحي المتآكلة، وينتزع الأسلاك المعلقة.. أقبض بأنفاسي وأصعد السلالم المؤدية إلى الفصل المحشور كالمغارة بين الفصول.. أستنشق رائحة فاسدة تكونت من معجون مقرف خلفه الزمن الراقد في وجوه الأساتذة وحيطان المدرسة.. لنعاود اجترار ساعات خمس؛ معلقين بين جرس المدرسة وحركات الأساتذة المتصنعة مدعومة بالعصا، فمتى أراد تدليلها أرسلها في نزهة شبقة إلى حياض أجسادنا الملونة بتموجات آثار العرق أو علامات الضرب.. نظل أبدًا بين الخوف والرجاء.. العذاب والمتعة.. ومتعة الفناء الفسيح؛ محنحين منعتقين من ساعات مملة ضجرة.. كانت تضغط أنفاسنا داخل مكعب محشور برائحة معتقة بأغبرة الطباشير المتطاير ورائحة اللوحات المائية والزيتية والبيض المسلوق وأنفاس كريهة.. تظل أحلام شامخة تراودنا.. ننتظر الساعات ولا نحسبها تطول وتقصر، تتمدد داخلنا فينمو المقت والكره كطحالب بحرية.. علمتنا المدرسة كيف نكره ثم كيف ننتقم، لم نكن نعرف قط قلوبًا تعرف الرحمة أو المغفرة، يطول الانتظار إلى أن تحل

قرقعات الجرس منقذة أنفاسنا الطافرة، تسابقنا إلى حيث وهج الشمس ودفئها، ترمي لنا أشعتها كطوق نجاة فنهوي بأقدامنا الصغيرة فوق الكراسي قفزًا وركلًا لكل شيء يقابلنا، لا نلوي على شيء.. نهرب مخلفين وراءنا حطامًا لا يعبر عن حاله بأكثر من مقاعد وأوراق مبعثرة، تعلوها أكوام نُفايات وبقايا أكل ومعلبات.. ساعات أخرى مشحونة بالمتعة والعذاب.. نصافح وجه الخالة منيرة، نلقف ما تطاله أيدينا من بسطتها الحافلة بالمأكولات والمشروبات في نزق وتدافع وتعبئة لمشاهدة ننتظرها بفارغ صبر، نقف ملتفين لاقتناص فرصة المشاهدة الكاملة لمعركة ساخنة محمومة بالانتقام خلفتها ساعات المدرسة النابضة بالكراهية، ولا نرحل حتى تكتحل أعيننا الصغيرة بمشاهدة كاملة مدعومة بالهتاف والتصفيق، فلا تنتهي إلا بعلقة يأكلها أحد الطرفين تظل وصمة عار معلقة في جبينه لا تزول حتى يتقمص دور المنتقم في تصفية لاحقة.. في هذه الأجواء المشحونة بالقهر والتشفي أحاول تبديد حومة الكدر.. أتذكر وجه أمي الذي امتقع لونه عندما رأت أخي يتضور ألمًا، ووجه زميلي بالصف والخطوط الزرقاء والحمراء تعلم على وجهه فتنهض في داخلي همة التحدي في تلافي الطرق الوعرة المؤدية إلى ما لا تُحمد

عقباه.. آتي مبكرًا.. أقوم بواجباتي بعناية وحرص، أنصت للمعلم جيدًا ولكيلا أبدو أمامه شارد الذهن فاغر الفم أحاول أن أصانعه بشيء من الاهتمام، أشاطره الإحساس بأهميته بالإيحاء تارة وبالإيماء تارات أخرى، وفي داخلي صوت يلعنه، وأطارده دائمًا كي لا تبعث به أنفاسي المتهالكة، ولكي أبدد علامات احتقاري له أمد يدي طلبًا للسؤال معرضًا عن محاولات الصفوف الخلفية للإيقاع بي في شراك مشاغباتهم التي كانت تستهويني، أجد فيها شفاء غليلي انتقامًا من الأستاذ البهلوان الذي يعيد إلى ذاكرتي صورة النقش.. أرقب ما يحدث بحذر من ممارسات الصغار الكبار، تلك الثعالب الصغيرة النامية باستمرار تتحرك من الأبواب الخلفية وبعيدًا عن عين الرقيب تحت وطأة الأجواء المحمومة بلوعة البلوغ ونفير الشهوة للإيقاع بالصغار في رحلة مطاردة لا تنتهي.. هذه وحدها قصة أخرى وموال يصم الآذان.. لم تستطع الإدارة المدرسية احتواء ظاهرة التحرش الجنسي بين الطلبة، كما أثبت المدرسون فشلهم في الحد من لهاث بعض المارقين والمتمردين من الطلبة، كانت تحوم حول كثير منهم شبهة التورط بالإيقاع بزملائهم الآخرين على الرغم من اللجوء الدائم لاستخدام صنوف من وسائل الردع

والتعنيف؛ في محاولة لكبح جماحهم، وربما تواطأ بعضهم مع بعض وغض الطرف عنهم لأسباب لم نكن نفهمها.. من بين الأساتذة الجدد الأستاذ سليمان، فقد راعه هول ما يحدث مستفَزًّا مما يرى ويسمع، لم تكن تستعمره خيبة الأمل كبقية الأساتذة الآخرين.. لقد انتصب متوعدًا ومجلجلًا باتخاذ كل وسائل الإصلاح من ترغيب وترهيب بمعاناة مشوبة بمرارة.. كانت أولى محاولات الإصلاح تبني مجموعة من الطلاب كمراقبين ومخبرين عن أي تجاوز يحدث، وهو بدوره وحده يقوم باللازم بطرقه الخاصة.. لم نكن نعي جيدًا كيف يمكن له وحده حل مشكلات كانت تستعصي على غيره، فقد كان أنموذجًا متفردًا بين الأساتذة، كأنه يحتكم على عصًا سحرية ليست للضرب أو التهديد، بل لتحقيق حالة من الرضا والطمأنينة، ليزيل عن أرواحنا أشياء مما خلفته مشاكسات تلك العصا المتهورة.. صرنا نتسابق لحصته.. لم يخف المشاغبون ابتهاجهم به مع ما يلاقونه من جزاءات متعددة تظل من الأستاذ سليمان مقبولة ومبررة وعادلة.. كان أكثر ما يثير حنقه تدافع الطلاب وتلاصقهم عند نافذة المقصف أثناء الفسحة.. لقد أدرك المغزى الحقيقي.. إنها الغواية نفسها التي تدفع بالبعض لاقتناص فرصة

طابور الفسحة للنيل من الصغار.. هو في ترقب دائم لحركات الطلاب وسكناتهم، يحرم نفسه فرصة الاستراحة بين الحصص لمراقبة الساحة.. لقد بدد لدينا صورة مستقرة لوجه الأستاذ المتجهم.. حالة استثنائية لم تدم طويلًا.. حيث راحت في صمت، تتسلل مؤامرة تنحدر في هدوء كالمياه المتسربة بين أكوام قش.. تهمة تضعه في قفص الإدانة.. تنسج الحكاية بكل براعة بما لا يدع مجالًا للشك تقول الحكاية:

- ذات يوم.. وبينا الأستاذ يجوب فناء المدرسة بحثًا وترقبًا كعادته عن طلاب متخلفين عن الذهاب إلى منازلهم رأى طالبًا تخلف عن اللحاق بزملائه.. استوقفه سائلًا عن اسمه، وفي أي الصفوف يدرس؟ سجل ملحوظاته الأولى، ثم راح يسأله بعد أن أجلسه إلى جانبه عن سر تخلفه وأشياء أخرى عن عمره وترتيبه بين إخوته وهواياته، استأنس التلميذ، لم يجد الطالب بدًّا من الامتثال لأستاذه الذي يمنحه الآن فرصة الحديث معه بأريحية غير معهودة بين أستاذ وطالب، دلفا معًا في حديث ابتهج له التلميذ لا يشاركهما فيه أحد، وبعيدًا عن الأعين ولا سماع بما يسمح بمسح غشاوة الكلفة بينهما.. أصبحا منقادين إلى لغة يحددها الموقف وحده، تعرت نزواته وانهمرت تكنس كل أمل

بالعودة.. انطلق متنقلًا بحرية بيديه الراعشتين بين مواقع مختلفة من جسد التلميذ في رحلة قياسات المسافات القصيرة والطويلة بحركات وئيدة من الأسفل إلى الأعلى، تتلاشى الكلمات وتستشري الدماء النافرة في عروقه بخطوات غير محسوبة، تتمدد الأفعى في روع التلميذ وتتمطى حمى الغواية متراقصة أمام عيني الأستاذ..

بدت الحكاية ملفقة في نظر محبي الأستاذ، صاغتها ألسن مشحونة بالكره والاستعداء، لمعت بها أعين الطلاب الشانئين متسربة بين بقية الطلاب، ولم يعر لها الأستاذ سليمان أي اهتمام مبددًا شكوك الإدارة بممارساته المعهودة دون أدنى تراجع، ولم تتورم الحكاية بين الطلاب والمدرسة إلا حينما تقدم ولي أمر الطالب بورقة صغيرة كاستفسار عما يتناقله الطلاب مما أضر بنفسية ابنهم.. تحمل بين طياتها مفاتيح أبواب الجحيم التي ستفتح على مصراعيها في وجه الأستاذ.. أمام هذا الاستفسار لا مناص من فتح محضر للتحقيق.. خضع الأستاذ سليمان للتحدي وقبل المثول أمام اللجنة المخولة بالتحقيق.. بدأت تداعيات الحكاية وتبعاتها تستشري ملقية بظلالها على أجواء المدرسة والأحياء القريبة.. أصبحت التهمة ورطة جرَّت معها أسماء أخرى من الأساتذة والطلاب للمثول أمام اللجنة للإدلاء بالشهادة، فكانت نبراتهم أقرب

للتشفي وكأن تفاصيل الحكاية وحكايات أخرى عبرت مسلسلة بين أعينهم مثل شهود عيان وهم يجسدون نزق الفتيان في اختراع قصص بطولية تشهد على رجولتهم.. كشفت هذه الحكاية عن تبعات وذيول كادت تودي بالمدرسة وإدارتها إلى نفق مظلم لولا تدخل مدير المدرسة ململمًا أجزاء الفضيحة المبعثرة في أجزاء من حكايات لم تكتمل، جلبت معها حكايات أخرى طالت في بعضها شخص المدير الخرافي الذي كنا نراه وكأنه صيغ من عوالم أخرى تبعث فينا الخوف.. وكنت أختلسه بنظرات شائنة، فأرتد إلى أقصى مغارة داخلي أرتمي بها هربًا من عينيه اللتين لا تفتآن تقذفان بحمم بركانية..

في لحظة محسوبة استحال إلى كائن أليف أقرب منه إلى قرد بهلوان.. بات طيلة تلك الأيام يستجدينا، ومراتٍ أخرى يتهددنا بكلام لا نفهمه على وجه التفصيل، كل ما احتفظت به عقولنا التي تكابد لالتقاط كل ما يمليه علينا أساتذتنا كان يحاول جاهدًا أن يضع يده الغليظة أمام أعيننا الشاردة فزعًا مستثيرًا كوامن الخوف فينا، للحد من مسلسل الفضائح التي جلبتها تباعًا فضيحة الأستاذ سليمان، وأن يطوي بذلك صفحة أضرت بسمعة المدرسة..

# شيء من لغة الفصول

انهمرت في تلك الليالي الشاتية أمطار غزيرة انقبضت لها أنفاس الحي، وارتعدت منها فرائص الرجال وقلوب النسوة؛ خوفًا وهلعًا على أطفالهم.. يضيء الكون باشتعال البرق فيعلو هدير الحناجر بالتسبيح والدعاء.. تشققت السماء بمياه لا يسعها جوف الأرض.. هياج الرعد وصرير الأبواب على زئير الرياح العاتية جردتنا من كل شيء سوى الآمال المعلقة في منحة الله بالنجاة.. وفي ظل سطوة السماء وسلطانها انفتل صوت مرتعد يندب الرجال للصلاة للوقوف في محراب الله تضرعًا وخيفة؛ حتمًا لن يستجيب إلا من سيدفعه إيمانه لتجاوز قبضة الخوف وقشعريرة البرد ورائحة طين لازب.. كنت أرقب خرير المياه وهي تتسلل

عبر شقوق الأبواب والنوافذ والجدر وعيني على أبي حاملًا عباءة مبطنة بالفرو فوق رأسه متأهبًا؛ لخوض مغامرة ليل يلهج بلغة نزقة مهتاجًا ضاربًا بأقدامه باطن الأرض، يومئ مشتعلًا كساحرة تلمع بعينيها في عراك لا ينتهي مع عفريت الجن الأكبر..

لا أدري كيف ارتسمت هذه الصورة المخيفة في لحظات راعفة بالرهبة.. ربما حكاية سمعتها أو قرأتها لا أدري.. تلتصق أعيننا بالسقف المتهالك فنتكور على أنفسنا وتستمر أمي في مناجاتها، فنضمر سكينة ينازعنا عليها اضطرام البرق يعقبه صوت تعانق السحب واضطرابها، إلى أن عاد أبي متأبطًا وهدة لذيذة وسكينة عذبة نثرها من عباءته فوق أعيننا الوسنى.. خامرتنا سنة ناعمة وشفافة كالسحر؛ رحنا معها في سبات عميق.. في الصباح الباكر نبتت أرواحنا من أديم الرجاء وبذرة الأمل بفرح وابتهاج يدفعنا إلى التماس ساعات الفرج ترسلها أشعة الشمس الندية.. كانت دافئة وحميمة على غير عادتها.. خرجنا بأقدامنا العارية إلى فوهات البرك.. كانت ساعات ليل احتفالية غيرت وجه الأرض من حولنا، كأن أديم السماء يلتصق بأجسادنا..

نمثل روح الأرض فيها، ونلتف متحلقين كغمامات بيضاء تبارك انتشاء الأرض وارتعاشاتها.. نركض، نقفز فوق فوهات المياه.. يحلو

لبعضنا استعراض همة اللامبالاة تعبيرًا عن الفرح، فيسحب شيأه ويبول.. يحرك المستنقع.. يرسم دوائر.. يحقق انتصاره مفسحًا الفرصة للآخرين، تعلو القهقهات ممتزجة بالصراخ، وتنكشف اللعبة حينما تستيقظ روح التحدي الكامنة في (علي) مثار السخرية ولغط الصغار.. كان كبيرًا في جسده صغيرًا في عقله.. لا يرى إلا من شق عينه اليمنى، يمشي بنصف جسده كي يبصر الطريق.. وكثيرًا ما يسقط متعثرًا بحجر أو حفرة نتنة.. يعبث به الصغار كدمية، يخضع لمغرياتهم بقطعة حلوى.. وقف لحظات أمام دائرة المستنقع الكبير ومد يده متلمسًا شيأه، والصغار يحدقون كيف يقف ذا الجسد الكبير مستلًّا شيئًا صغيرًا.. لم يكن بحجم ترقبهم فارتعبوا منه وهربوا..

حدجته عيوش إحدى نساء الحي المتأمرات فيه.. تضبط إيقاع النسوة وتؤلف بين رؤوس الناس بالحلال، ركضت إلينا زاعقة في وجه علي.. خف وأطلق قدميه للريح ولا يزال شيؤه معلقًا بين ثوبه وسرواله يحاول جاهدًا أن يبصر طريقه لعله يظفر بمخبأ يقيه حجارة عيوش.. وبعد عناء أبصر طريقه حيث كان أحد الأبواب مواربًا فولج فيه بلا تردد.. كان من عاداته أن يختفي لساعات محسوبة، ولأنه مثار عطف نساء الحي وشفقتهن فقد اعتادت خطواته الولوج إليهن بما لا يقدر أحدنا على اقتراف هذه المغامرة إلا لقضاء بعض حاجياتهن.. حينما

يغيب نقدر أنه في ضيافة إحداهن، وحينما يتجلى بعد ترقب تكون جيوبه مترعة بالحلوى، فلا نفارقه حتى ننال نصيبًا منها.. ذات يوم سمعنا جلبةَ ضربٍ مبرحٍ يتلوه بكاء واستجداء، صوت من الداخل وآخر من حافات الشارع: يا ملعون يا خبل! هرعنا إلى موقع الجلبة.. كانت المفاجأة أن (علي) كان محشورًا تحت أقدام أحد قاطني الحي وهو يرغي كبعير ينحر يتطاير الزبد من بين شدقيه.. حاول بعضهم تخليصه من براثن الرجل المستأسد، وبصعوبة وبعد لأيٍ خُلِّص علي ونُقل إلى بيته وجبينه ينضح دمًا وعيناه الواجفتان أبدًا مأخوذتان شاردتان تغرقهما دموع تسح بقدر الأسئلة التي تتطاير من بين شفاه الناس.. كنا وحدنا ندرك السبب فقد صور لنا (علي) أكثر من مرة كيف كان بعض النسوة يداعبن قضيبه ويجردنه من ملابسه.. يروي لنا حكايته معللًا ذلك من أنهن كن يبحثن عن جيوبه كي يضعن فيها الحلوى، إحداهن بركت فوقه وهو يترنح تحتها خوفًا وهلعًا محاولًا الفكاك منها ونادرًا ما يتمكن من الهرب والنجاة من أنفاسهن الخانقة..

تمسي أيام الشتاء مكفهرة حانقة.. تمتطي الرياح صهوة الليل الحالك.. ينثر مكنوناته من البرد والصقيع في انتظار ساعات الصباح الأولى.. لم يعد الناس راغبين في الخروج من فرشهم لولا صوت المؤذن المرتعش الذي يمشط الأرض مخترمًا أحلامهم، ينتزعهم منها انتزاعًا..

تنقضي الصلاة، تبدأ أولى ساعات النكاية، حيث المدرسة، يختفي صوت الشارع وتتلاشى الأصوات الصغيرة والكبيرة إلا من طنين الذباب والبعوض المحلق باحتفاء حول المستنقعات الآسنة التي تتوسط مفرق الشارع.. وفي ساعات الظهيرة نلج أفواه بيوتنا.. نلتهم ما تقذف به يد الجوع.. حفنة أرز مطعمة بقطعة لحم لا تكاد تسد جوعنا أو تكسو هياكلنا العظمية، ثم ننبعث كرة أخرى منتشرين بين الأزقة، غير عابئين بفوهات البيارات أو مكترثين بما تبعث به من روائح تمتزج برائحة كريهة أخرى تتنفس بها الخرائب الممتدة بين أجزاء كثيرة من الحي والأحياء الأخرى المجاورة.. أصبحت بتقادم الزمن واحدة من علاماتها المميزة.. تأوي إليها الكلاب الليلية الضالة، كما أنها مائدة للذباب ومسكن للدود يأكل من عمق الأرض أمتارًا..

وبين أكوام الزبالة ترقد الماشية.. يجوب الزبالون الأحياء بحميرهم ومقشاتهم يمارسون كل شيء عدا مهمتهم الرسمية يمتعوننا بألعابهم البهلوانية الغرائبية مقابل حصولهم على لقمة تبلعها حلوقهم البائسة، كانوا يمتعون أعيننا بألعابهم السحرية بما لا تستحمله عقولنا، ويكفون فور قدوم رجل كبير، وينتابهم خوف شديد مخافة افتضاح أمرهم.. كنا بعقولنا المشبعة أوهامًا وأرواحنا المغتسلة بالخوف ندرك أنهم يقومون بأعمال سحرية.. وعلينا أن نكتم عن الكبار سرهم إذا ما أردنا المتعة

والاستئناس بهم.. ومع أولى نسمات برد آخر النهار التي تنفث بها رياح الشمال يلملم الزبالون شعثهم ويوقظون حميرهم من سباتها العميق؛ منطلقين إلى حيث لا ندري..

وما بين ساعات الشروق الأولى وساعات الغروب تنسج ألف حكاية وحكاية تغزل من ساعات الناس الخاملة.. وتبقى تلك الحركات السحرية تخيم على أحاديثنا.. نشاهدها يوميًّا، ولا ننفك معلقين في محاولات فاشلة لفهمها أو فك رموزها.. وعندما تزحف جحافل الظلام وتضرب أطنابها على أكتاف الكون تتسلل أصابع الخوف فتعبث بجدائل السكينة وتحل إسارها فيستشري داخلي منتزعًا صمام الأمان المستقر بين جنبات المكان وما توحي به الوجوه المتلحفة بفضاء الأحلام.. ألوذ هربًا من استعادة الصور المخيفة المرتبطة بمعجم لا أفهم محتواه، لكنني أراه يتشظى داخلي ويتحرك بيننا.. يحكون عن الجن فتنتابني قشعريرة، يشخصون السحر؛ فترتسم أمامي صورة الزبال إلى أن يتمكن مني التعب..

# وجوه لا تغيب عن الذاكرة

ذات يوم قائظ عاد أبو صغير بسيارته الأجرة يحمل دنفه اليومي وهمًا يجتويه.. تقف السيارة بلا اكتراث حيث الزقاق الضيق.. تتدلى قدماه منها إلى أن تلامسا الأرض فيرفع بهما جسده المنهك، تقودانه إلى حيث أعدت له أم صغير غداءه في آنية معدنية محكمة الغلق، تضعها كعادتها بمحاذاة الفراش.. جلس منتصبًا والتهم ما تطاله يداه، ثم مسح يديه بأطراف الفراش، وهوى مستسلمًا لنوم يغالب الضجر، سرى به إلى نفق الكوابيس.. وقبيل أن يسترد أنفاسه مستغرقًا كليًّا في النوم انسكب في أذنيه صوت مفجوع مخترقًا رأسه كمسمار يتلظى..

قفز من فراشه المتعطن يلعن الشيطان؛ مخمنًا أنه كابوس فض أرق منامه.. هم أن يلقي بجسده إلى جهته اليمنى متمتمًا بآيات قرآنية، لكن الصوت لا يزال يجتر الويلات، صوت ينازع صدى الموت.. استقرت الفاجعة مزيحة عن عينيه غشاوة النوم.. صوت لا زال يندب يستغيث، وبلا هوادة حمل جسده المنهك مندفعًا حيث مصدر الصوت، كنا اقتربنا إلى ذات الصوت لكنه توارى داخل بيت (أبو صغير).. خرج إلينا حيث كنا نشنف سمعنا في ترقب وتحسب لهول فاجعة منتظرة.. حدجنا بنظراته.. أغرقناه بعيوننا الشاحبة، انتفضت أوصاله.. انحسرت في لحظات حرارة الظهيرة بين أنفاسه، وحشرجات الهلع تنبعث من صوت سحقه اليأس، عاد أدراجه في الاتجاه المعاكس.. الصوت ينحدر من علٍ، وينطلق صعودًا إلى سطح المنزل ثم يختفي..

كنا نرهف أسماعنا ونقلب أبصارنا في كل اتجاه انتظارًا وترقبًا لما ستسفر عنه الفاجعة.. اختفى الصوت المفجوع رويدًا رويدًا.. أخيرًا خرج أبو صغير يحمل بين يديه كتلة بشرية غارقة بدم وطين.. لم نكد نميزها؛ وخلفه أم صغير يتقطر وجهها عبوسًا وهلعًا وقد انحسر الدم عنها حتى خلناها قد شاخت من هول الفاجعة.. ركض أبو صغير لا يلوي على شيء إلى الشارع المعربد بلهفة الفضول المعلقة بين أعين الناس لم يكن ثمة وقت كافٍ.. سبقه بعض الرجال مستنجدًا بأقرب

سيارة قادمة.. نسي سيارته الجاثمة بعد نصب يوم عوت فيه بين كل الأزقة و(حواري) تعرفها وأخرى تكتشفها.. في دقائق قدمت السيارة المرتجاة واستقلها إلى أقرب مستوصف.. وقفنا في حيرة غير عابئين بالوقت أو لهيب الشمس الكاوي.. انصرف الرجال إلى شؤونهم، وظللنا نحملق في كل سيارة منبعثة في كل اتجاه.. غاب ساعات ثم عاد حاملًا ولده بلفافات بيضاء وحنق تومض به عيناه على (مطلب) صاحب الدار الملاصقة لبيته، فقد طالبه مرارًا أن يعيد بناء جدار بيته المتهالك خوفًا من أن يهوي على رؤوس أبنائه..

ذهبت توسلاته تسفها الرياح.. لم يعبأ (مطلب) بالأطفال الذين يقضون أجزاءً طويلة من أوقاتهم في اللعب فوق الأسطح مخترقين المسافات الفاصلة إلى الدور المتراصفة.. لكنه أهمل نداءات (أبو صغير) وتحذيراته رافضًا كل العروض التي حاول (أبو صغير) استمالته بها.. عرض عليه دفع تكاليف تقويم الجدار، فلم يقابله إلا بكل عناد وإصرار أن يبقى الحال على حاله؛ متذرعًا بأن إزالة الجدار أو مجرد تحريكه سيأتي على البيت كله قائلًا:

عليكم أن تمنعوا أولادكم من صعود السطح... لم يهبه الله ذرية ولم يستشعر معنى الرأفة أو الحنان تجاه الأطفال؛ لذا لم يكن يحتمل نزقهم،

فكانت المشاعر متبادلة حيث كانوا يقابلونه بالمثل.. ومما زاد من حنق (أبو صغير) نبرة التحدي في كلمات (مطلب) المتعجرفة، فعندما أسكن ابنه النازف في البيت وخرج مندفعًا باحثًا عن خصمه، ركل باب بيته الصدئ بقدمه صارخًا به:

– اطلع طلعت روحك، أرني وجهك يا شايب الشوم..

خرجت زوجته تبادله تراشق الأصوات..

– ماذا تريد؟ أعوذ بالله منك ومن عيالك! أشغلتونا الله يشغلكم..

لم يعبأ بهياجها؛ فقد اعتدنا ألا تقابلنا إلا بهدير صوت يسبقها..

– أين هو؟

دفعها فسقطت متكورة على الأرض، وولج مندفعًا إلى أعماق المنزل.. بحث عنه في حجراته الصغيرة فلم يجده..

المرأة تصيح به وتلعن بالألفاظ التي تعلمناها من قاموسها الخاص، وهي لا تزال طريحة الأرض، قفزها وخرج.. أخبره أحد الأولاد بإشارة سريعة إلى الشارع المقابل:

– تجده عند (أبو عزيز).. نحن نعرف (أبو عزيز) منذ أن دبت خطواتنا الأولى على قارعة الطريق في دكانه الصغير مزروعًا فوق فرشة خوص لم تكن تهتز منه سوى أطرافه العليا، ولم نره قط يزحف.. ربما لأنه لم يكن يود إثارة بوادر الشفقة أو الانتقاص من هيبته.. كانت له حساباته الخاصة ويُحسب له ألف حساب.. فمنذ ساعات الصباح الأولى يشرق هو من فتحة دكانه الصغير فيلتف الرجال حوله متحلقين، يحيونه ويسمعون منه.. كان يضع إلى جانبه الأيمن بعض الكتب، يقرأ منها ساعة ينفض الرجال من حوله.. كان بمثابة الميزان وضابط إيقاع حياة الناس.. يستنير بآرائه الرجال والنساء، لا يتورعن في مكاشفته عن مكنونات خواطرهن في أدق التفاصيل.. كان إلى جانب ذلك مؤرخًا وضابطًا للأحداث كبيرها وصغيرها.. يعرف دقائق حياة الناس وتفاصيلها.. كانت مشورته حكمًا نافذًا.. يبسط ذاته للصغير والكبير.. للمرأة والرجل.. نعرف مكاننا بين يديه.. نستأنس بتعليقاته ونضحك لمزحاته.. يثير مشاغباتنا ونزقنا ويضحك كثيرًا لمنافراتنا.. كان ينثر فوق رؤوسنا نفحات الطمأنينة وألق السكينة.. تلجأ إليه النسوة في أمورهن الخاصة، ويهرول إليه الرجال عندما تكتنفهم أزمة ويستبد بهم الكرب..

في ذلك اليوم الملتهب لجأ (مطلب) إلى (أبو عزيز) هربًا من وجه (أبو صغير) وانتقامه المنتظر، فآواه إلى أن قدم (أبو صغير) يقوده حنقه،

يعتصر قبضتيه المتورمتين بالدماء النافرة غضبًا، رآه (مطلب) عن كثب استشار (أبو عزيز) ماذا عساه أن يفعل؛ أدرك أن ثمة مصيبة تقدح كالشرر من عيني (أبو صغير) أحس (أبو عزيز) التوتر الذي خالج صاحبه، فأوعز إليه أن يتسلل من باب بيته تلافيًا لمصيبة يسوقها أبو صغير بين يديه كمن يرعى قطيعًا، أدرك (أبو صغير) الحيلة وحسب حساباته، فكان الأسبق حيث انقض عليه كالصقر على طريدته.. كانت لحظات راعشة محمومة ترتشف من قلوبنا نكهة التشفي والانتقام، فكل لكمة أو رفسة ناجزة تحدد معالمها على وجه (مطلب) هي بالمعنى الصحيح تنطلق من أقدامنا وأيدينا، كانت ليلة انتقام مشهورة..

# أنفاس الليل

ظلت حادثة (مطلب) عالقة في أذهاننا ردحًا من الزمن.. سقط ووجهه مبللًا بالدماء يفتر عن لسان يبحث عن مخلص، فتلقفته ألسنة الناس.. لملم (مطلب) خزيه وكرامته المهدرة واختفى، وظل بيته الطيني مهجورًا تأوي إليه القطط والكلاب الضالة؛ لم تكن جرأتنا تكفي للولوج فيه واكتشاف ما بداخله بعد أن بات مهجورًا لعدة أشهر، وتمزقت سلاسل كانت تشد أزر الباب الحديدي الصدئ المتهالك.. غمرته أكوام القاذورات لتصبح مائدة للسائب من الأغنام.. هذه السائبة صارت جزءًا متممًا لخارطة الشارع تُعرف به واحدة واحدة، ولها سماتها وتميزها بين جميع القطعان الزائرة والمتسللة من الأحياء والأزقة المجاورة..

لم تعد خرابة (مطلب) مجرد خرابة مهملة، فقد أخذت بعدًا آخر بعدما اكتشف أن الروائح الكريهة المتميزة عن روائح نتنة عششت في أنوفنا منذ تفتحت أعيننا على الشارع وأصبحنا جزءًا من مكوناته هي روائح خمر! كلمة رهيبة تسقط في روعنا وتمتلئ جوانحنا خوفًا ورهبة.. تنتفض منها فرائصنا وتصيبنا بقشعريرة.. (خمر)!! نعلم أن الخمر يرتبط بالسكر، والسكران مجرم وقاطع طريق يختزل كل معاني الخوف.. وعادة ما يرتبط بالليالي المخيفة من حياتنا.. السكران مملوء عنفوانًا وجبروتًا، يقفز الدور ويتسلق الجدران بوجه معتم وأسنان بيضاء تضيء كالبرق..

في منتصف ذات ليلة امتلأ الشارع صخبًا وضجيجًا واشتعلت ألوان حمراء وزرقاء يقطعها بعض أصوات أزيز رصاص وحشرجات أصوات تحث الخطى..

– اقبض عليه..

– هرب من الشارع الثاني – لا أقدر مسلح – يطلق رصاص..

– ابتعد عنه.. خاتله..

– أرسل من يحجزه من طرف الشارع..

– طيب.. طيب..

أصوات العسس والشرط المسلحة تتعاقب لنيل قصب السبق في القبض على الفارين..

لم يسمح لنا أبي بالخروج، لكن الفرصة كانت مواتية، فقد دفعني فضولي لاستجلاء حقيقة الأمر.. أوصى والدتي أن تحكم قبضتها..

– لا تدعيهم يخرجون..

مع شيء من التخويف الذي ضغط على أعصابنا أكثر، وفي لحظات تسرب الخوف من قلوبنا انتابتنا طمأنينة دفعتني للتسلل زحفًا في جنح الظلام الذي يلف أوصال المنزل.. اجتاحتني رغبة عارمة لاختبار شجاعتي.. فهي فرصة ناجزة لاحتكار تفاصيل الرواية.. اقتنصت فرصة انشغال أمي فلم تلحظ حركاتي الوئيدة وخطواتي الصغيرة فتمكنت من الوصول إلى مسرح الأحداث، مما سمح لي بالانخراط في جموع المحتشدين.. التصقت بسيارة الشرطة البيضاء المقلمة بالأسود، وبعد أن هدأت أنفاسي اللاهثة وبدأ الدم يجري في عروقي طبيعيًّا وعدت أتذوق طعم المغامرة؛ انتابني شعور الرجل الكامل فأصبحت أكثر شجاعة وثقة، وصرت أتحفز أكثر للاندماج في الجموع والتسلل بين الأرجل إلى أن وصلت نقطة الحدث الساخنة، فرأيت ثلاثة رجال مكتوفي الأيدي

والأرجل مُلقَونَ على الأرض، وآخرين لفَّهم ظلام سيارات النجدة الحالك.. أرمقهم بشجاعة وأكاد أبصر تمامًا..

أُخرجت من المنزل (براميل) تشبه تلك التي نصنع منها قواعد لمراجيحنا لا تختلف عنها إلا بالمياه المتفجرة منها تحت ضربات الفؤوس، تفوح منها رائحة غريبة صدئة أغرقت الشارع مستقرة داخل فوهات الحفر التي لا تكاد تجف من المياه الراكدة والقاذورات المنتنة؛ مكونة بذلك مركبًا ثلاثي العناصر.. انتشرت رائحتها بين الأزقة والأحياء المجاورة، وفي ساعات متأخرة من الليل وبعد الانتهاء من تفجير براميل الخمر، أو قبل صلاة الفجر، قدم آخرون نعرفهم جيدًا بوجوههم (رجال الهيئة)، كانوا يُعرَفون ب(النواب) تنحصر مهمتهم بالتنويه بدخول وقت الصلاة.. يجوبون الطرقات سيرًا على الأقدام؛ مزودين بعصي الخيزران، لم نكن نحبهم ولا نخافهم، ومعظمهم من كبار السن لأنهم لا يتعرضون لأحد خارج أوقات الصلاة، ولكن الويل والثبور لمن يتخلف عن صلاة الجماعة! فما إن يتناهى إلى سمعهم خبر رجل لم يحضر الصلاة لبضع أوقات حتى يتبدى الوجه المكترب، يأخذونه أخذًا شديدًا وبلا رحمة، فلا يحل قيده حتى يذوق علقم عصيهم وشيئًا من التوبيخ، يظل عارها يلاحقه إلى أن يثبت عمليًّا صلاحه وتقواه؛ لذلك كلمتهم مسموعة واحترامهم واجب قسرًا؛ فلم يكونوا مطالبين بأكثر من ذلك، وفي هذه

الليلة كانوا شهودًا للحدث لا أكثر، فلا تدخل عادة في إطار اهتماماتهم إلا بحدود تبليغ الجهات المختصة فقط، ربما لأنهم كانوا أيضًا يخافون السكران وترتبط بأذهانهم بتلك الصورة الشريرة عنه عدا أنهم غير مسلحين للدفاع عن أنفسهم عند الحاجة؛ لذلك يتجنبون الاحتكاك بأمثال هذه الحوادث.. وفي تلك الليلة الرهيبة وقفوا فقط متفرجين إلى قبيل ساعات رفع أذان صلاة الفجر الأول؛ ليهبوا نشطين يفرقون الناس بقوة الخيزران..

مضت تلك الليلة على حدث جعلني أتمتع بحالة من الرضا التام، وشعور بالانتصار على الخوف الذي كبلنا جميعًا ساعات الحدث الأولى.. عدت إلى البيت متسللًا تحت طيف الظلام الذي بدأ يتبدد، ودسست جسدي الناحل في كومة الفراش الذي نبعت منه رائحته القديمة طافرًا بإغرائه إلى نوم عميق..

وفي الصباح المشتعل برائحة غير معهودة خرج الناس نساء ورجالًا استجلاءً للحقيقة مدفوعين بحفنة من أسئلة فضولية، لا تقنعهم كل الحكايات، فلا حقيقة تروي عطش أسئلتهم عدا برك صغيرة تنبعث منها رائحة نتنة تخيم بين الأنوف.. أستمع إلى حكاياتهم فتنتابني نشوة انتصار، انتصار الحقيقة التي أعرف تفاصيلها فلا تهزني تفاصيل

حكايات ملفقة تنسجها خيالاتهم الهزيلة.. كان السؤال الذي لم أعثر له على إجابة واضحة ومحددة هو: أين هم أولئك الذين سدوا بأجسادهم منافذ الضوء كي لا يتسلل إلى مسرح الحدث؟ هل كلهم من أحياء أخرى؟ لم يكن ثمة غريب بينهم.. أكاد أجزم أن من بينهم من لاذ بنسج حكايات موغلة في عالم لا يمت إلى الواقع بصلة، وحكايات أخرى تقترب من الواقع وليست كل الحقيقة.. لا تثير فضول الناس.. لا يعيرونها أي اهتمام.. تظل في نظرهم ساذجة وتبسيطية.. بات الناس يرهفون أسماعهم لحدث راح ضحيته ثلاثة أثناء المطاردات.. يزيدها بعضهم عشرة أشخاص.. يعشق الناس استمراء لعبة الخيال في سرد القصص والحكايات.. رجال أشكالهم غريبة دهنوا أجسادهم بالزيت الأسود يتسلقون الجدران، فما إن تحط أقدامهم في بيت (مطلب) المهجور إلا وتبدأ أصوات مخيفة طافرة.. نساء ورجال يرقصون ويشربون إلى قبيل شروق الشمس.. أقسم أحدهم أنه كان يسمع أصوات المغنيات والضحكات الهائجة، وأنه رآهم بأم عينه، وأن الشرطة قبضت على كثير منهم وقتلت البعض..

وفي يوم الجمعة تحولت خطبة الجمعة إلى مجالس أخرى للروايات المتضاربة عن بيت (مطلب) وغوايات الشيطان لبني البشر، حيث استقر النص الأخير لحكاية الخرابة على ما أُعلن على المنابر ليكون

بمنزلة البيان الرسمي الأخير، ولأنني أحد شهود العيان للحدث فلم يخالجني أي شك في اختلاق خطيب الجمعة لحكاية ليس من تفاصيلها ما رأيته بعيني، فهي أيضًا من نسج خيال الخطيب.. خرجت تلك الظهيرة القائظة بخيبة كبيرة، فقد كنت أنظر إلى خطبة الجمعة بقدسية وإلى الخطيب بعين الإجلال والاحترام، بيد أني لم أجد مفرًّا من لزوم ما لا يلزم، فقد أسكنتني كلماته المقدسة إلى أعماق حيرتي رافضًا تزوير الحقائق، ولكن بصمت..

# لحظات للفرح

تمتدّ أيامنا إلى آخر أوصالنا.. نراها في وجوهنا الطافحة بعلامات وندوب حمراء نازفة مترعة بالشقاء والبؤس، تعكسها أيدينا المتورمة، تتأوه بالقيح والصديد كأرض أرهقتها أشعة الشمس المفعمة باللعنة والجدب، فلم نكن أبناءً للماء أوفياء، فلا وقت لمهادنته.. نمقته مثل عدو يتربص بنا.. نراه بوجهين قميئين، شيء من لغة الفصول –صيف وشتاء– حر شديد الحرارة وبرد يتيبس كعوشق قديم.. في ليالي العيد وحدها –حالات استثنائية– ترغي الأمهات على أولادهن حنقًا لتخليصهم من براثن الأوساخ العالقة انتظارًا لفرحة تزفها إشراقة يوم العيد.. كل شيء يبدو كرهان مؤجل..

نحبس أنفاسنا ونتجلد على مضض وكره ومعاناة.. نحلم بملابسنا وأحذيتنا الجديدة.. نخرج من عمليات التنظيف المريرة نتقافز فرحًا وانتعاشًا؛ باحثين عن الجديد الذي سيغير من وجوهنا الصغيرة وينفض عن أرواحنا رهق أشهر نكدة.. نخرج قبل أن تغزل الشمس خيوطها.. نقف على الأبواب انتظارًا لحلوى العيد التي تنهال بكرم، حيث كانت الحلوى هي أولى نكهات العيد وأطايبه، وبعد أن نملأ الجيوب نتراكض في أبعاد تمدنا بعبقها المضمخ بروائح ندية عطرة، وبعد كل صلاة عيد ينتشر الرجال والأطفال بين دهاليز الأزقة والأحياء في ابتهاج، يتباركون هذه المناسبة ملقين بهمومهم الجاثمة أبدًا وراء ظهورهم، مشتغلين فيما يمكن أن يجلب إلى نفوسهم ونفوس أبنائهم السعادة والفرح..

توشى هذه الأيام بالمآدب والأكلات، مما تجود به الدور المحيطة، وبما أن الفرح مشاع فإن الأطعمة أيضًا مشاعة بين الناس، حيث كانت تُقدم في جانب واسع من جوانب الحي، فلا ننفك مأسورين بتلك الأجواء، مأخوذين بروعة الاجتماع والألفة، كنا نحن الصغار نتهادى بين أيدي الكبار ملبين طلباتهم عبر الأبواب المفتوحة والنوافذ المشرعة.. تتحول البيوت إلى بيت واحد مقسم على مجموعة من الدور المتعاضدة، نعلق أعيننا منصتين إلى أهازيج النسوة وحكايات الرجال، وكانت تعبر مخيلتنا في تعايش تام، بعضها كان حزينًا ومؤلمًا، يزيح مشاهد الفرح

وأحاسيسه لبرهة معادلة صعبة تتمخض عن استفهام كبير.. كيف يتوج الفرح بذكريات مؤلمة؟ هل هي فرحة النجاة؟ هل هي تعزية من نوع آخر كتلك التي تجلب الهم والشجن في لحظات السعادة والفرح.. ربما كانت ابتسامة أبي العريضة تطفو على وجهه وهو يهم بسرد حكايته تأكيدًا على سر الحياة موصولًا بطرفين متناقضين.. سعادة وحزن.. يرخي ذاكرته ويحكي والكل منصت: (ذهبت في سفر من أسفاري أمشط وجه الأرض بجهاتها الأربع بحثًا عن الرزق، مخلفًا ورائي أبنائي صغارًا مع أمهم، فلم يكن لنا قربى أو نسب في هذه البلد، وكالعادة أستودع الله أولادي وأماناتي وأرحل وراء لقمة العيش، فلا ألقي عصا سفر حتى أستقل أخرى)..

يقول أبي والحزن يلملم شعث ابتسامته: عدت ذات ليلة من السفر قبيل الصبح، قرعت الباب قرعًا خفيفًا كي لا أوقظ الأولاد.. فإن كانت أم الأولاد مستيقظة فستثب إلى الباب وتسأل عن الطارق، فما إن قرعت القرعة الأولى حتى فُتح الباب على عجل وبلهفة غير معهودة.. وقفت مشدوهًا مأخوذًا من هول ما أرى..

المرأة التي تركتها تنعم بسلام بالرغم من كدر حياتنا وصلفها تقف أمامي حاسرة الرأس متغضنة الجبين.. وعندما رأتني سقطت على

الأرض.. حملتها إلى الداخل وصرت أبلل وجهها المكدود المنهك بقطعة قماش رطبة.. ما إن أفاقت حتى رفعت يدها مشيرة إلى الأولاد الراقدين في الغرفة، فانطلقت أستطلع أمرهم، كلهم بخير عدا اثنين وضعتهما في أقصى زاوية من الغرفة، أسرعت والخوف يهزني، وإذا بالطفلين ذابلين غارقين بعرق الحمى وندوب الحصبة التي تعبث بجسديهما الناحلين.. منظر مفزع.. نقلتهما سريعًا إلى أقرب وحدة صحية.. الفاجعة تستوفي ذروتها.. كانت مقفلة، فحثثت الخطى إلى الطبيب المصري الساكن في عقب الشارع المقابل، فلا وقت يهدر، والطريق للمستشفى العام طويل، طرقت الباب بعنف بأطراف قدميَّ، وأخيرًا فتح الباب، وتوسلت إليه أن يهب مسرعًا لإنقاذ الطفلين، فالأمر لا يحتمل، وكانت كل ثانية تمتص أجزاءً من روحي وتحرق أعصابي.. أحسست أن العرق بدأ ينز من جميع أنحائي وقواي بدأت تتضاءل ودوار ألمَّ بي.. انعقد لسان الطبيب، فليس لديه ما يمكن تقديمه سوى الذهاب معي.. كان يردد:

– إن شاء الله خير؟

وهو يحثني على الإسراع.. ركبنا السيارة وبريق الأمل بدأ يخبو.. أحس أنني أفقد ناظري بين عيني والطرقات التي تغتسل بمياه الأمطار المنهمرة تبعث صوتًا مشدودًا بالحزن.. غرقت عيناي بالدموع مكتحلة

بسوداوية الطرقات المظلمة بداخلي.. لا أدري أحس أنني لا أقوي على الحركة، أعصابي تخونني.. نورة تنتقل بين يدي وطيف يتسلل بين عينيها الصغيرتين.. وصلنا المستشفى العام فلم تكن الرغبة نفسها أكيدة.. أحسست أنها النهاية لا محالة.. فور وصولنا هرول الطبيب بأسرع ما تسعفه به قدماه واختفى حاملًا الصبي.. تبعته، استقبلتني الممرضة مشيرة إلى الجهة اليمنى من البهو إلى حيث إحدى غرف التمريض.. وضعت نورة على السرير الأبيض.. أغرقتها بعيني النازفتين دموعًا، وحشرجات صدري تملأ الغرفة الصغيرة، بدأ الطبيب يزاول عمله.. اقترب مني يواسيني.. أشار إلى طبيب آخر سحبني من غرفة التمريض ثم أقفل الباب.. لحظات صعبة لم أتذوق طعمها قط في حياتي كلها.. خرج الطبيب مطأطئ الرأس يبدد حزنه بحركات استفزت حرقة كادت تمزقني.. أماط سماعة الكشف عن أذنيه مجيلًا ناظريه بين أركان الأسقف المتلازمة..

صمت برهة ثم أدركت أنها الفاجعة رحلت نورة..

– سألته وأنا أهز كتفيه:

– ماتت!!

أجابني:

– البقاء لله..

استيقظت من وهدة الحزن المركون داخلي سألته:

– وأخوها..

لم أكمل كلماتي الخائرة حتى خرج الطبيب الآخر برفقة طبيب الوحدة الصحية.. كان وجهه ممزوجًا بارتياح.. تتنفس به عيناه قال:

– الحمد لله.. أبشر بخير ولله الحمد.. أعطاه الطبيب طعمة الحصبة وقال:

– سيتعافى في غضون يومين..

أردف أبي يجتر أنفاسه، وكأنه يسدل الستار عن مشهد يمتص رحيق الألم ليمزجه بإكسير الحياة (الأمل):

قائلًا:

أصبحت وقتئذ بين حدي النار والماء..

ظلت هذه الحكاية ترسم لي صورًا وأبعادًا أخرى للحياة، وفتحت أمامي نفقًا آخر تتسرب من خلاله بعض الأسئلة الصعبة.. قد تكون الصفعة الغليظة التي تلقفها زميلي آنذاك خلفت آثارًا غائرة في نفسي وعلمتني أن أوصد أبواب هذا النفق جيدًا أو أن أحافظ على سريته بالقدر الذي كنت أبحث فيه عن طرق تقربني أكثر من والدي..

# شيء من تعاليم الفصول

كانت الصلاة تحافظ على إيقاعنا اليومي وطفرنا الذي ينداح إلى آخر لحظة من محطات حياتنا اليومية.. كان الآباء يشددون على أدائها جماعة.. كانت مدارًا لغضب الآباء وحنقهم، فهي شعار للمحافظة والتقوى، وبها ترتبط الأشياء وتُعقد على أساسها العهود والمواثيق، وهي الشهادة الوحيدة للمستقبل؛ لذلك يحرص الآباء على سوق أبنائهم للمسجد، وويل للمتخلفين.. كان ذعري من أبي قبيل كل صلاة يدفعني لاحتكار موقع متقدم بين الصفوف، وقبيل صلاة الفجر توقظني نحنحته وتسابيحه وتهليله المميز، فلا تكاد تسقط في أذني إلا وأهب مرتميًا أمام صنبور الماء أدافع النوم، وأطرد شيطانه.. أحضر قواي المتهالكة..

أحاول مس الماء الذي لا يُطاق بأطراف أصابعي ثم أتذكر أبي، يرتسم وجهه أمام عيني عابسًا.. فترتعش أطرافي.. أبلج عيني بعسر وأرشقهما بالماء وكأني أرشق شيطانًا جاثمًا فوقهما بالحجارة.. لم يكن أبي وحده الذي أخاف سخطه، بل إن ثمة أمرًا لم أكن أفهمه تمامًا لكنه يحدث عندما أرى البرق يلهب أديم السماء، والرعد يصرخ في رحمها وخلف السحاب.. كنت أتخيل أن شيئًا ما ثقيلًا يتدحرج خلف السحاب الأسود سيسقط يومًا وفي أي لحظة، وتظل الصلاة الرابط الوحيد بين البقاء في أمن والتعايش في سلام.. وبقدر ما كان النهار ممزوجًا بتموجات الطقس وتقلباته نتشكل على وتائر تضعنا أمام مواجهة عاجزة عن الانعتاق من الفقر والأسى.. فالدنيا تمر بوجهين، واحد في الشتاء وآخر في الصيف.. الأول مضمخ برمادية السحاب الراقد في أوصال الناس التي يدثرها البرد؛ فتصبح أيامهم لزجة ومطاطة يأكل دنف الليل منها ما يزرعه النهار، والآخر مشتعل لهيبًا واحتراقًا.. لم نكن نعي كيف يلملم الشتاء عباءته ويرحل ليقتحم الصيف بسوطه اللاهب وخيوله المدججة برمضاء شاحبة ومقيتة وكلاهما ممقوتان، وأحلاهما مر..

نعبر عن ذلك من حيث لا ندري.. نمارس طقوسًا بلهاء في الشتاء نشعل أكوام الأوراق فتثمر الدفء، وفي الصيف نحشر أقدامنا العارية في أكياس النايلون من شدة هجير الصيف واتقاءً لرمضائه، ونظل

هاربين من وجه الإسفلت الذي يكاد يتميز من شدة ما يتنفس به من الحر إلى آخر، فلا ظل نتفيؤه، نهرول، نطلق أقدامنا، نحرك الرياح الساكنة.. تلفحنا الشمس.. تتيبس حلوقنا عطشًا، فنتسابق إلى (الأزيار) المنصوبة داخل المسجد نعب منها الماء في علب صدئة، ونبلل أثوابنا المهترئة، ثم نعود أدراجنا حيث ساعات الهجير، ساعاتنا نديرها كيف نشاء.. فالأبواب لا تكاد توصد إلا ساعات من الليل، ويظل بعضها مفتوحًا على مصراعيه أو مواربًا، فلا حاجة إلى إحكامها بالأقفال، فهي آمنة في ظل الفقر الذي يخيم عليها..

نلج الأبواب ونقفز فوق الجدران؛ مخترقين حواجز الدور المتهالكة.. نعدها واحدة تلو الأخرى.. نعرف تفاصيلها الدقيقة، فلا شيء طي الكتمان أو التخفي.. نصطاد الفتيات الصغيرات ونمارس لعبة العروس والعريس بعقول صغيرة تنهل من الشارع والطرقات أكثر مما تكتسبه من البيت والمدرسة.. نختفي بهن ويشددن من عزائمنا بجرأتهن المتناهية، ربما كن أكبر سنًّا، فتخالجنا مشاعر لا نفهمها تدفعنا إلى الالتصاق بهن أكثر إمعانًا في إتقان اللعبة فلا نبدو أمامهن صغارًا.. شيء ما يرضي فينا الرجل الصغير الراقد بين جوانحنا..

ذات ظهيرة قائظة طلب صديقي الذي كنت ألازمه أن أساعده في إنجاز بعض الواجبات المدرسية، والنتيجة كالعادة أن أقوم بإنجازها نيابة عنه، لكنه هذه المرة قدم دعوة كنت أنتظرها، كنت لا أزال أحتفظ بصورة اقتنصتها عيني ذات مرة لإحدى أخواته، كن الوحيدات المعزولات عن الاختلاط ببنات الحي بأمر صارم من الأم، فقد كانت تضع نفسها وبناتها في حسابات خاصة، كانت تُفهم على أنها شيء من قاموس التعالي.. نزولًا عند رغبة صاحبي وافقت وبلا تردد، صعدنا إلى الردهة العلوية من المنزل (الروشن) إحدى غرفات الجلوس الرئيسة العلوية، أحضر كتبه ودفاتره، ثم غاب فترة حيرتني، ثم دخل حاملًا إبريق شاي في حفاوة غير معهودة على من هو في مثل سني، خمنت أن الأمر لا يعدو أن يكون مجاملة تخفي وراءها واجبات الأسبوع بأكمله، فمن عادات الأساتذة مضاعفة الواجبات على من لم يقم بأدائها إمعانًا في عقابه.. وماهي إلا لحظات حتى حلت المفاجأة غير المتوقعة ودخلت علينا أخته الكبرى هي نفسها تزف بين يديها طبقًا من الحلوى أو الهريسة التي كنا نعرفها مع الباعة المتجولين، وضعتها على الأرض، وجلست ترمقنا انتابني ارتباك، تفصد العرق من جبيني حياءً.. قالت:

– أشعل المروحة؟

– أشرت إليها وجلًا بالموافقة لم أنبس بكلمة، فقد كنت مأخوذًا بجمالها الوهاج الذي غرس أول سهامه.. رحلت عيني تجوب شعرها الليلي الذي يرفرف فوق جبينها البض وحول عينيها الواسعتين وأشياء بدأت تستيقظ في مخيلتي، كانت راقدة ذكرتني بلياليَ الأعراس عندما كنت أدس جسدي الصغير الذي لم يكن يوحي بأكثر من فضول بين أجمل النساء..

– تشرب الشاي؟

امتدت يدها تقرب فنجان الشاي فغاصت عيناي في تفاصيل المناطق الساخنة حيث تبدت لوزتان كانتا ترقدان فوق صدرها النافر.. اعترتني هزة خلت أنها استشعرتها.. نسينا أخاها الجالس بيننا.. أفقنا من خيالينا اللذين التقيا ينسجان خيوطًا لا ندري أين ستسوقنا.. عادت إلى سمتها ثم طلبت منه أن يحضر كوب شاي إضافيًّا، ثم عطفت على أمرها طلبًا آخر يلزمه الخروج من المنزل.. وبطواعية خرج.. زحفت قليلًا وسحبت كتابًا مدرسيًّا ملقًى على الأرض، زاد التصاقي في مكاني فلم تأخذني الجرأة في الاقتراب لتغطية المسافة الفاصلة بيننا.. أحسَّت مدى حرجي وخوفي وزحفت أخرى حتى التصقت بجسدي.. غمرتني روائحها العطرية سحبت يدي إليها وأسندتها على صدرها فبدى لي مكشوفًا

والخجل والخوف ينضحان من عيني وبشجاعتها وجرأتها راحت تداعبني بيدها الأخرى..

– أنت خائف؟!

لا.. لا! أجبتها والعرق يتقطر من جبيني..

– طيب اقترب.. تعالَ جنبي..

استشرى الخوف داخلي.. أدركت أن ثمة ما أتوجسه.. نهضت وأوصدت باب (الروشن).. عادت ولكن بجرأة وإقدام أكبر متحفزة لكل شيء ممكن وفي أقصر مدة ممكنة.. بدأت بشغف تلمس جسدي الناحل توقظ شراييني المغنطة وتحرك مساماتي الطافحة بملح عرقي.. زاد التصاقها.. تتلوى كالحرباء فوق جسدي المتكهرب.. أنفاسها تبعث حريقًا يلهب وجهي وشفتي.. احتوتني بجسدها القطني المبلل وأصبحت تزفر وتتلوى أدركت أنني وقعت صيدًا سهلًا لنمرة ستسحق آخر فقرة من عظامي.. صارت ترتشف أنفاسي المتهالكة وفحيح نزوتها المتلاطمة يرشح بين أطرافي.. علت.. هبطت في حركات بهلوانية، انتهزت فرصة تلويها ودفعت ببقاياها التي لم تزل تستعمرني، فنهضت ألتمس طريقي إلى الباب.. ركبت أوصالي المتهاوية ركضت.. سقطت من الدرج،

حملت جسدي المكدود ودفعت به إلى رحم الشارع الذي يلد الجميع ويتبنى كل شيء.. انتشقت الهواء الحار وتنفست معه الصعداء، ظلت صورة الفتاة القطنية اللزجة تخيم على مرمًى قريب من عيني، ورائحتها تعبق في أنفي، أصبحت عندما ألج الدور المشرعة أتصفح الوجوه وأرمي بأنفي الذي لا يزال يداعب روائح (مشاعل) العطرة بين خصلات الشعر أو الجدائل المعقوصة، أتفحص مساماتهن التي تتخللها أشعة الشمس فتبدو كالمرآة تعكس تفاصيلهن الدقيقة.. بيد أن صورة (مشاعل) لم تزل عالقة بين أهدابي.. أصبح الرجل داخلي ينمو و(مشاعل) تنمو وتزداد توهجًا وإشراقًا.. أتحين الفرص كي أراها أخاتلها من بين هالة العباءة السوداء في غدوها ورواحها من المدرسة وإليها.. تعقبتها فنهرتني..

– ابتعد.. لا يراك إخوتي..

توسلت إليها أن أراها أو حتى تكشف لي عن وجهها.. وأخيرًا وعدت أن تنظم لقاءً يتم بواسطة أخيها.. فانطلقت أقبل وجه الأرض بأقدامي العارية.. فكلما رأيت صديقي أتوقع منه دعوة مماثلة ومدفوعة من قبل (مشاعل).. مضت الأيام مع طول انتظار ولم تمنحني ما وعدتني به..

صار السؤال يتعاظم وصورتها تكبر.. انتهى العام الدراسي.. حلَّت الإجازة الصيفية وما إلى سمعي أن (مشاعل) مخطوبة.. كدت أجن، كان حديثًا يدور بين النساء ساعات العصاري.. كنت أرخي سمعي لكل ما يُقال عن (مشاعل).. ترانيم خاصة.. خيم الصمت، وتسللت خواطر مشحونة بالحسرة لا أصدق أنها ستتزوج، رحت أستكشف صحة الخبر، سألت صديقي عن شأن زواج أخته، فأكد لي صحة ما تتناقله النساء.. ثم أردفت بسؤال آخر حول الزوج المنتظر، أخبرني أنه رجل يكبرها بعشرين سنة، رفضه الأب وقبلته الأم بحجة أنه غني..

أخذت أحسب فارق العمر بيني وبينها، ثم مساحة العمر التي تفصلني عنه.. نظرت إلى قدمي الجرداوين وأثوابي المهترئة ووجهي الذي بدأ يتعضل وتذهب رخاوته، يحدد معالمه أكثر الزغب النابت فوق الشفة العليا.. كانت أيامًا عصيبة على الرغم من نجاحي الباهر إلا أن فرحتي بانتقالي إلى مرحلة دراسية متقدمة توازي حزني وحالة التيه التي أمر بها.. لاحظ والدي تحولات طارئة مختلفة ذات نكهة مميزة على الرغم من مرارتها.. صار يؤنبني ويسألني:

– هل رأيت نفسك في المرآة؟

فأتممت بكلام من قاموس جديد بدأت أفهمه:

– مرآة مشروخة!

أحس بحالة ضجر تعتريني، ولكي يخرجني من هذه العزلة سمح لي أن أذهب إلى بيت عمي لقضاء ساعات النهار بين أبناء عمي، كانت فكرة ناجزة تخلصني، فمع أبناء عمي لن أضطر كثيرًا للخروج إلى الشارع؛ لأنه لم يكن مسموحًا لهم بذلك إلا للصلاة وهي جزء من تعليمات عمي الصارمة، فالويل لكل مخالف أو معاند.. أراهم في تعجب، فعندما تحين ساعة قدومه يتبددون كسحابات صيف لا أدري أين يختبئون ولماذا؟ فتعلوني دهشة واستغراب، فما إن يصل إلى البيت حتى يشرع بصوت متهدج يندبهم ويلعن ساعتهم لمساعدته في إنزال ما جلبه معه.. فقد كان سخيًّا كريمًا على بيته.. لم تكن تعبر ليلة بدون زائر أو طارق.. أحيانًا لا يعرفهم، بل يعرف من بعث بهم وأوصاهم بالنزول في ضيافته.. وبعكس أولاده تمامًا لا أرى فيه سوى الإنسان الحاني البشوش.. أكبرته، صرت أرى فيه وجه أبي.. أجلس معه الساعات الطوال يحادثني كالكبار، بينما تجلس زوجته على مرمًى ليس بعيدًا عنا انتظارًا لما يأمر به، فقد كانت دائمًا على أهبة الاستعداد لأي طارئ.. كان حديثه موجهًا لي أحسست بتعاظم الرجل داخلي.. حكاياته لا تُمَلُّ ولا تُنسى، فكل واحدة منها ظلت محفورة في ذاكرتي، تكشف عن شهامة رجل خاض غمار الحياة بصلف وتحدٍّ.. ثم علمت من أبي أنه كان يعتمد عليه لفض المنازعات،

وكان كثير التنقل والأسفار، ولديه شبكة واسعة من المعارف والعلاقات أثرت في حياته وجعلتها ذات طابع خاص.. كبرت في أعين أولاده كما لو أني أصبحت أكبرهم، وبمجرد أن ينفض والدهم لبعض شؤونه تبدأ مداهمات أسئلتهم المتشوقة لمعرفة ماذا قال أبوهم وماذا حكى؟ وكيف يتصرف؟ ولِمَ لا أخافه؟ كيف يعاملني؟ وكيف أتفاعل معه؟ هل أتحدث بحضرته أم ألتزم الصمت؟ في استجواب لا ينتهي دائمًا كانوا ينتظرون إجاباتي باستفاضة عن كل أسئلتهم المملة، وربما أحيل بعض تفاصيلها إلى شبه أساطير ربما يسمعونها لأول مرة تكشف لهم زوايا مجهولة من حياة أبيهم.. تنامى لدى زوجته شعور مختلف تجاهي، أصبحت تراني رجلًا؛ حيث بدأت في وضع طرحة سوداء فوق رأسها، فهمت المقصود، فاقتصر وجودي على أطراف المنزل الأمامية، فلا ألج عقر المنزل إلا ساعة تختفي منشغلة في تنفيذ واجباتها المنزلية الصارمة..

أصبحت الناطق باسمهم عند أبيهم الممثل عنهم في قضاياهم.. ما كان يريعني حقًّا نظرات ابنة عمي مريم الشانئة، كنت أتوجس الكره الذي يملأ تلك العينين لي، أحس أنها تضمر مقتًا.. أحاول أن أشيح بوجهي ذات الجهة الأخرى كلما قابلتني تلافيًا لتلك النظرات التي لا أفهم منها سوى الشر، مكتشفًا أن ثمة من يشاطرني هذه المشاعر تجاهها، لم أكن وحدي الذي يضمر خوفه منها، بل إخوتها أيضًا لم

أسمعهم أو أرَهم يومًا يبادلونها الحديث عدا صيغ الأمر والنهي الطاغية على صوتها.. يستقبلونها كأوامر صارمة لا تقبل المماطلة أو التراخي أو حتى النقاش أو التردد.. بت مع كرهي لها وخوفي منها أرقبها عن كثب دون أن تحس على الرغم من وقوفها الطويل أمام المرآة.. الأمر الذي لم أجد له مبررًا.. أختبئ بين إخوتها وعيني تقتحم مندسة بين تصرفاتها؛ فألمح في وجهها علامات حزن شارد، لم أذكر قط أنها خرجت من المنزل ولو في زيارة بصحبة أمها إلى الأقارب أو الجيران، فتزيد حيرتي.. حاولت مرة أن أكتشف سر معاناتها فكانت الليالي التي تجمعني مع بعض إخوتها لتبادل الحكايات فرصة سانحة للسؤال عن سر هذه المخلوقة الضعيفة القوية، فلا تملأ إجاباتهم فراغ فضولي.. توجهت إلى أمي بالسؤال فكشفت لغز الحكاية قائلة:

– إن أباها كان ينتظر أن يكون الجنين ولدًا وقد اختار له اسمًا أصبح يُكنى به، وكانت المفاجأة المؤلمة له ولزوجته أنه بنت، فتحولت الفرحة إلى حزن خيم على البيت سنتين إلى أن حملت أمها وأنجبت ولدًا، كل ذلك انعكس سلبًا على مريم التي لم تنعم بالحنان الكافي، كان فيض الحنان يتجه إلى أخيها.. وأضافت أمي قائلة:

– إنها –أي مريم– عندما بلغت الثامنة من عمرها أوكلت إليها أجزاءً من المهام المنزلية..

سألت أمي:

– لماذا لم تدخل المدرسة؟

أجابتني مستنكرة!

– المدرسة!! عمك لا يقبل ويستنكر على الآخرين إدخال بناتهم المدارس..

دهشت لذلك لم أفهم السبب بعد، فكررت سؤالي:

– لماذا؟!

قالت:

– يا ولدي هو يرى أن البنت مكانها البيت، ولا يجوز في نظره أن تخرج البنت من المنزل لأدنى سبب، لقد استنكر على أبيك عندما أدخل أخواتك المدرسة وحلف يمينًا ألا يدخل له بيتًا..

أنهت أمي كلامها واضعة بذلك النقاط على الحروف.. استحال ذلك الخوف الذي يعتريني كلما صادفتني مريم إلى عطف، كم هي مسكينة.. هي لا تكرهني لذاتي.. هي تكره كينونتي.. تكره ذكورتي.. ربما تخيلت وجه أبيها يقطن بين ملامحي.. لقد أكسبتني تجربة الجلوس معه والسماع إليه واستقبال ضيوفه ملامح الرجال وأخلاقهم، أصبحت معتمدًا من قبل أبناء عمي يلتمسون شفاعتي لهم عند أبيهم في بعض احتياجاتهم، ولم تتورع زوجة عمي ذات يوم في طلب شفاعتي عنده.. وبالمقابل فهو يملي عليَّ ما يريده منهم، وحينما يتناهى صوت المؤذن إلى سمعه يهب صارخًا بهم، فلا يخرج حتى يتقدمونه الواحد تلو الآخر، فلم تكن تأخذه فيهم رحمة لو تخلف أحدهم عنها.. ولم أسمعه يومًا يندبني إليها أو ينهرني أو يعنفني لو تأخرت عن اللحاق بهم.. ذات يوم سألني ابن عمي الأصغر أن أعيد له ما سلبه إياه زميله، وقد كانت حقيبته المدرسية، فبدونها سيصبح أحد ضحايا أستاذه (راجح) بأسلوبه العقابي المتبع عادة، فقد كان يضرب الطلاب بحزام بنطاله.. يهوي به على كل بقعة من الجسد.. ويتذكر صوته الجهوري (خليك أبضاي) شو يا زلمه.. وإزاء الصورة البشعة التي ينقلها ابن عمي عن أستاذه قبلت توسله، ولكن بشرط أن يصحبني أخوه الأكبر الذي تردد في البداية، لكنه أحس بحراجة الموقف فوافق.. خرجنا متسللين من المنزل تحت جنح

الظلام، وبهدوء انطلقنا بحثًا عن بغيتنا.. جبنا الأحياء والأزقة المظلمة متنقلين بين زاوية وأخرى، وعندما استبد بنا الإجهاد وعيل صبرنا سمعنا صوتًا أو بالأحرى أصواتًا خمنا أنه من نبحث عنه بمعية بعض أقرانه صادرة من سيارة شحن تقف ملتصقة بجدار يمتد من فوهة الشارع إلى تقاطع الشارع الآخر، حيث المساحة تتسع للمارة.. طلبت من خالد أن يراقب الطريق ريثما أصعد وأناديه باسمه، فلا ضوء يفصح عن الوجوه سوى بقايا نور يتسلل من بقالة العم أحمد.. صعدت السلالم وناديت:

– (كريّم) تعال أريدك..

ثمة جلبة مستنكرة تحدث داخل صندوق الشاحنة.. خمنت أسبابها وقفزت من أعلى السلم على الأرض فالتوت قدمي، نهضت والألم يخترق قدمي، حملتها واستعنت برفيقي كي يُنْهِضَ جزئي المتدلي من الألم إلى أن أصل البيت، ولم يكفَّ عن سؤالي: ماذا رأيت؟ لم أعره اهتمامًا قدر اهتمامي بالألم الذي يسكن مفصل قدمي اليمنى.. ظللت صامتًا إلى أن جاء أبي يقلني إلى البيت، ولم تبزغ عين الشمس إلا والجبيرة تثقلني وتلزمني الفراش لأسابيع، وبعد الأسابيع الثلاثة سألت أبي أن يوصلني إلى بيت عمي، فقد اشتقت إليه وإلى حكاياته، فوجدتهم أكثر شوقًا وتحرقًا للاستخبار عما حدث وكيف حدث، خصوصًا من لدن رفيق

تلك الليلة المشؤومة الذي راح يلح بالسؤال، فأخبرته عما شاهدته أو بالكاد وسمعته، وكانت صعقة نزلت عليه محرقة بقايا الأسئلة التي كان سيمطرني بها، ركن إلى زوايا الصمت المنتشرة في أنحائه، وكانت اللحظة الأولى التي يكتشف فيها العالم أو طبيعة الأرض التي يقطنها.. قدم عمي كعادته فأقبلت إليه أساعده فيما جلبه معه، وظل يسألني عن حالي وسبب انقطاعي وأنا أجيبه عن أسئلته التي لا توحي بأنه يكترث لها، غمرني بكرمه وعطفه وسط هالة من حسد أبنائه، وتعجبهم كيف أن والدهم يمثل واجهتين في إنسان واحد..

تزوجت مريم قسرًا.. لم تعلم إلا في ليلة الزفاف.. كانت تلك الأمسية التي قضيتها في المنزل حالة استنفار لليلة الفتاة التي ظلت تبكي على امتداد النهار وأمسيته القرمزية الداكنة المملوءة بالنشيج والبكاء والفرح.. الفتاة العروس لم تخط أعتاب المنزل إلى أن وصلت سن الزواج، إنما يجب أن تنصاع إلى كلمة حاسمة أُلقيت بلا مبالاة كالمُسَلَّمَات..

– جهزي ابنتك للزواج..

شدهت المرأة المسكينة، لم تدرك أو تتصور أن ابنتها سترحل وتتركها فجأة..

حاولت أن تشد من حبالها الصوتية وتسأله.. وكأني أدرك معنى الكلمات التي خرجت بلا طواعية والحدث يمر أمام عيني..

– من هو العريس؟

– ولد (أبو فهد)..

ثم خرج لا يلوي على شيء.. ذهب في شأن من شؤونه..

ظل البيت واجمًا متدثرًا بعباءة الليل السوداء.. يرخي حبال الأحزان على تلك الفتاة التي كُتب عليها الحزن من أول يوم تفتح فيه عينيها على الدنيا.. امتلكتني جرأتي المعهودة مستغلًّا احترامهم لي، فصرت أتجول ببصري وأرمي بأذني نحو الباب الموصد، فلا أسمع سوى صوت النشيج المتقطع وصوت الأم الذابل حرقة وكمدًا تواسي ابنتها المسكينة.. أسندت ظهري إلى جدار الغرفة متظاهرًا بإصلاح نعلي الذي انتزع من مكانه.. بدا الصوت أقرب والنشيج يعلو بالبكاء:

– كل بنت لابد أن تتزوج..

الفتاة المسكينة تردد..

– لا أريده – لا أريده..

– يا بنيتي الرجال ما يعيبه شيء..

لا تنظري لسفاهته وجنونه بعد الزواج يعقل وأنت تساعدينه وأبوه دائمًا يتابعه وسيتغير..

وبعد محاولات إقناع فاشلة خرجت الأم مخلفة وراءها كومة من الآلام..

– عدت إلى حيث يجلس عمي، فأشار لي بيده التي بردها الحديد وصبغها بلون الزيت المحروق وبكلماته المختصرة كالعادة: رح إلى أبيك وقل له الخميس القادم موعد زواج مريم، فنهضت على عجل ساحبًا قدمي التي لا تزال مثقلة بالجبس، وقبل أن يهم بالخروج صار يصرخ غاضبًا: أين أنتم يا ملاعين؟

وفي هذه الحالة يجب أن يمثلوا واقفين بين يديه قبل أن يتم موال السباب والشتم المعهود، جاءوا مرعوبين فصار يحدق فيهم كأنه يتفحصهم لأول مرة، ثم أمرهم بالانطلاق إلى بعض الأقارب المجاورين لإخبارهم بالزواج وموعده؛ معقبًا على كلامه بالتهديد والوعيد لأي مخالفة أو نسيان أو أدنى تأخير..

اختفى الثلاثة وصرت أتعمق في تكوين عمي الخرافي، فقد انتشرت في وجهه علامات حفرتها أصابع الزمن وتغضنات غير منتظمة تبرز أكبر علامة فارقة في وجهه وذقنه الذي يمتد شبرًا محفوفًا من جوانبه العليا والسفلى ويتخلله بعض الشعيرات البيضاء.. يكبر أمام عيني ثم يصغر بقدر ما أبتعد عنه.. أراه شامخًا كجبل، وإذا ابتعدت رأيته يتشكل مخلوقًا ينبت من الأرض فأطمئن إليه..

بدأت الاستعدادات تجرى على قدم وساق.. وفي الصباح الباكر نهض الراقدون على أحزانهم.. عمتي وأبناؤها يجترون الخطى المثقلة بالحسرة والمهانة، لكن ثمة عمل ما يجب إنجازه.. نزلت من الردهة العلوية من المنزل بعد أن أيقظني لهيب الشمس الحارق من أحلام وكوابيس تناوبتني ليلة كاملة، كان وجه عمي يتقمص أدوارًا مختلفة بين الحلم والكوابيس التي طارحتني وأثقلت كاهلي.. أتصفح الوجوه.. أفقت في صبيحة ليلة العرس أسأل نفسي:

- لو أني واحد من أبناء عمي، هل سأكون على شاكلتهم أو نسخة مكررة منهم؟ ثم يرتد الجواب نعم، وتنفيه لا، وتخيلي صورة لوجه مريم الذي أكل منه الهم الشيء الكثير، فبدا باهتًا

وكأن الابتسامة الصفراء المرسومة على شفتيها إعلان آخر بالرفض، وقد لفها الحزن من جهات الأرض الست..

في ذلك اليوم المحموم بترتيبات العرس أسرع بعض أهل الحي المجاورين رجالًا ونساءً يمدون أيادي العون والمساعدة، وكالعادة يُقام العرس في الحي نفسه، وكان الاقتراح إقامة العرس في السد الذي يفصل بيته عن بقية الدور المجاورة؛ حيث يطل من الجهة المظاهرة من الشارع الآخر.. التمس عمي الإذن من جاره أن يستضيف النساء في بيته.. في غضون ساعات محسوبة أصبح كل شيء معدًّا وفي مكانه الصحيح..

لم أصدق أن والدي يمكنني من فرصة البقاء في بيت عمي ريثما تنتهي مراسم الزواج لاقتناص المتعة المنتظرة.. خرجت أتقي حرارة الشمس ومستكشفًا عما تم إنجازه، فكم هي المتعة التي ستكسر حدة الرقابة التي تخيم على بيت عمي.. كل شيء يبدو جاهزًا.. عقود الإضاءة الخارجية والأروقة التي ستحدد موقع الاحتفال، أواني الطبخ – قدور كبيرة جدًّا–، ورجال ينتظرون الإشارة باليد، في أقل من ساعة أُنْجِز كلُّ شيء وصار النهار يمد خطاه إلى الليل الذي أمسى بمنزلة احتفاء حزين خيم بين أركان المنزل، من بينها ركن يحتكره باب خشبي خُربشت ألوانه، يتلاشى خلفه أنين مريم عندما تعلو الأصوات.. أضيئت الأنوار

التي كشفت أمامي عن سر وجه الأرض.. تحولت إلى احتفاء ليس بالعرس وعروسه؛ بل بأبناء الأرض الصغار والكبار.. صرنا نتقافز مرحًا، وانتشينا من روائح الأبخرة الهلامية المتكورة أمامنا كمارد يحرك الأرض من تحت أقدامنا فنهب نلتقط أنفاسنا في مواجهة ساعات مختلفة من حياتنا.. تشع دلال القهوة الصفراء بريقًا فتزيدنا عنفوانًا وفرحًا، نلتقطها من وجه الجمر الناقع حمرة، ونروح في غمرة انتعاشنا نسكب منها للقادمين الذين بدأت تقاطعات الأزقة تعج بهم، وأسطح الدور المتراصفة تمتلئ بالنساء.. المغامرة الأكثر إمتاعًا وتشويقًا لنا عندما نتحين فرصة انشغال الرجال ونتسلل مختبئين بين الصغار للوصول إلى المواقع المناسبة بين النساء، مما يتيح لنا متعة مشاهدتهن يتمايلن على إيقاعات الضرب بما توافر لهن من أوانٍ معدنية، حيث رحن يضربن عليها ضربات متناغمة تعلو وتهبط، ثم تعلو بأصواتهن الشجية المنتحبة كأنها مسكونة بكل عذابات الأيام والليالي السوداء التي تضمرها قلوبهن، تستفزها الألحان المنتشية فينهضن سكرى متمايلات، وقد أرخين شعورهن السوداء الفاحمة، وبحركاتهن المجنونة يقذفن بها ذات اليمين وذات الشمال.. نقترب أكثر ونتدثر بين أجسادهن الرطبة؛ فتثير نزواتنا المكبوتة، وبين صوت الفرح وأنغام الحزن المنبعث من حناجرهن سقطت واحدة على الأرض وهوت أخرى.. وأنين ينسج مشهدًا

امتقعت له الوجوه واشرأبت الأعناق تنظر إلى حلبة الرقص الغارقة في قاع الأرض..

– أحضروا البخور..

تعالت هتافات النسوة:

– دثرنهن بهالة الأدخنة الرمادية..

لم تجد نفعًا فلم يزلن طريحات الأرض وأنفاسهن تتصاعد..

بللن وجوههن الممتقعة صفارًا بالماء البارد.. صاحت إحداهن:

– أحضروا الماء البارد..

تصاعدت زفرات أنفاسهن، أدير البخور مرة، مرتين أُغرقت وجوههن بالماء البارد.. ضاقت الحلقة.. كل واحدة تريد أن تقدم يد العون (آمنَّا بالله).. أقبلت إحدى العجائز تتمتم بآيات قرآنية.. أفسح المجال قيد جسد العجوز المتهالك، تحفز قدميها للمسير..

جلست متربعة وصارت تقرأ بصوت مسموع وتنفث في وجوههن وحشرجات أنفاسهن تتلاشى رويدًا رويدًا.. أفاقت إحداهن، بلجت عينها مشدوهة وكأنها قادمة للتو من عالم آخر لا تدري ما الذي حل

بها.. أُجلست وصار النساء يساعدنها على النهوض، أما الأخرى فلم تزل في غيبوبة كاملة إلى أن بدأت تترنح.. قالت إحداهن:

أحضروا البخور..

وصاروا يحيطونها بدخانه.. قالت أخرى:

اضربن يا بنات..

فشرعن بالضرب على الأواني التي أحيلت إلى طبول، والمرأة المترنحة تحاول النهوض تعينها بعض النسوة إلى أن استوت واقفة وصارت تتابع إيقاعاتها الراقصة إلى أن أفاقت، ثم سحبتها النساء من حلبة الرقص وأجلسنها وهن يقدمن لها الماء.. ظل الرجال مشدودين محبوسي الأنفاس انتظارًا لما ستسفر عنه محاولات الإنعاش، فقد تبددت كل الأصوات إلا من صوت ينزف ألحانًا شجية.. بات ذلك المشهد حديث المجالس رجالًا ونساءً.. أشعلوا ليلهم وسمرهم بحكايات عن تزاوج الإنس بالجن وأساطير تناقلوها عن آبائهم وصدقوها..

وحكايات ساذجة تملأ ليلهم، وتزيح عن كواهلهم رهق الحياة وكدرها، ثم فجأة يدخلون مضمار السباق لنيل قصب السبق في الكشف عن سر المرأتين الذي يُعد أحد الشواهد الحية على حكاياتهم

المتجذرة في صميم الزمن الراقد في خيالاتهم، حكاية أعراس الجن.. أحدهم ادعى أنه شاهد عيان، وراح يصف بالتفاصيل الدقيقة أن ابن الجان الأكبر تزوج إنسية عرَّفها باسمها ونسبها، وأنجبت منه أبناءً أقسم أنه يراهم كل ليل يتلبسون صور قطط وكلاب يعرفهم بالأسماء.. انقضت ليلة العرس مسفرة عن حكايات تدعمها بعض الشواهد.. مما اختزلته عقولنا وانصرفنا محققين شيئًا من المتعة، ظلت تلك الحكايات نقشًا محفورًا في ذاكرتي حتى صرت أرى القطط أبناء الإنس، ولربما سمعت أحاديثهن في ظلمات الليالي الحالكة.. ارتبطت القطط والكلاب بعالم الجان فلا ينسلون من الأرض متلبسين إلا تحت عباءة الليل الحالك.. وترتسم تلك الحكايات في أذهاننا وخيالاتنا الصغيرة ويكبر الخوف فينا من الليل وسكونه العائم بمواء القطط ونباح الكلاب..

تتابعت الأحداث والصور تنثال أمام عيني أحاول أن أوجد علاقات مشتركة تفسرها؛ بيد أن الفشل في تحقيق ذلك والإعياء انتصرا في النهاية وكأنها اللحظات غير المحسوبة؛ إذ انفجر صوت خلته حلمًا مفزعًا يمر بي، إلا أن الصوت المفجوع أقوى من الحلم، نهضت من فراشي فزعًا، ونزل أبي من الردهة العليا من المنزل مفجوعًا والصراخ لا يزال يمتد إلى نهاية الشارع ظنًّا منه أن أحدنا أصابه مكروه، فلما اطمأن إلينا جميعًا ارتدى ملابسه وخرج.. غاب مدة طويلة على صبرنا النافد

منذ الدقائق الأولى نترقب الباب يفتح ويطل منه أبي يقص علينا الحكاية، حاولت أمي إعادتنا إلى فرشنا فالليل لا يزال يلمع بالنجوم، وأخيرًا دخل علينا والدي ممتقعًا لونه.. يلوذ بصمت يتمزق حسرة.. بلا إجابات محددة.. عدنا إلى مضاجعنا وصعد إلى حيث ينام.. لم نصدق أن الليل الثقيل رحل.. ومنذ الصباح الباكر خرجنا نبحث عن تلك الإجابات.. سمعنا ألف حكاية وحكاية، لكن شيئًا ما حدث لم يكن يحدث كثيرًا إلا مع المصائب، وبعدما قُضيت صلاة الظهر أُديرت حلة مملوءة بالماء أمام المصلين وكل واحد بدوره يتمتم بآيات وينفث، وبشغب الأطفال ونزقهم ننتهز الفرصة ونبصق من أقصى حلوقنا في قاع الحلة..

فتنكشف الحقيقة على لسان أبي الذي شارك في محاولة الإمساك بسميرة أكبر فتيات الحي، حيث خرجت تحت جنح الليل تصيح بأعلى صوتها بلا وعي وتجوب الأزقة.. طاردها والدها وبعض الرجال وبعد لأيٍ وجهد أمسكوا بها واقتادوها إلى المنزل..

أصابها مس من الجنون، وهي الفتاة مضرب المثل بين النساء في رجاحة العقل..

لقد أثارت شجونًا خاصة، وحزنًا بدت معالمه تكسو وجوه قاطني الحي وتلون عباراتهم بالألم.. فقد عُرفت بذكائها الوقَّاد وجمالها الأخَّاذ.. كانت غواية أهل الحي، فلم تكن تضن علينا نحن الصغار بمتعة الجلوس معها، والاستئناس إلى أحاديثها.. تعلق بها كثير من شباب الحي، وآخرون صاروا يترددون على الحي من آونة إلى أخرى بريبة وتحفُّز لعلهم يظفرون بلمحة منها أثناء تنقلاتها بين بيوت الحي، فلم يكن ثمة حرج في اقتحام المنازل في أي وقت من الأوقات.. ترافقها نظرات الشباب حتى تتوارى عن الأعين، تلك النظرات كانت مسالمة، فلم تكن تنزع إلى أكثر من تعشق لجمالها، حتى ظهر شاب استطاع فك الحصار من حولها واستأثر بالموقف، فلم يعد يجرؤ أحد على الاقتراب من قرن الشارع المقابل لبيتها، وقد بان للصغار جليًّا مخاتلتها إياه النظرات ولغة الاستلطاف عن بُعد.. ومتى جاء تعمد قذف الباب بالحجارة حتى نسمع قرع الباب بشكل بطيء ومنتظم، لتهب إلى الباب مواربة إياه متحججة بانتظار إخوتها الذين عادة ما ترسلهم لجلب حاجاتها من الدكان.. كانت إيماءاتها مكشوفة، بيد أن متعة اللعب والقفز فوق إطارات السيارات المتدحرجة كالقردة تشغلنا عن الولوج في تفاصيل لعبة الغزل بينها وبين الشاب القادم من الأحياء المجاورة، وتظل لعبة الغزل بين سميرة والغريب إلى مغيب الشمس، فينصرف تغمره السعادة ويداعبه

الحلم في مستقبل زاهر مع سميرة، لكن القدر لم يمهله طويلًا مستتبًّا في هناءة مخاتلة حبيبته؛ حيث افتُضح أمره وقُبض عليه متلبسًا على يد والد سميرة وجاره (أبي صنهات) الذي طالما نهره بعنف وقذفه بالحجارة إلى أن يودعه أبعد مسافة من الشارع المنتهي بتقاطعات الأزقة المتفرعة؛ ليتوارى عن الأعين أيامًا ثم يلتمس متخفيًا بساعات المغيب الباهتة؛ حيث تتشابه الأبعاد وتضمحل التقاسيم.. يلتمس طريقه على حذر إلى باب عشيقته الموارب، وصار يسترق النظرات إلى غور البيت الذي لا تفصله عن الباب الخارجي سوى أمتار مكشوفة.. لم يكن أحد منَّا يجرؤ على افتضاح أمره.. لم يكن الخوف وحده الذي يكمم أفواهنا؛ بل إن الممارسة كانت بالنسبة إلى الأطفال اليافعين أشبه ما تكون بالمغامرة العذبة التي نستمتع بمشاهدة مجرياتها وما تسفر عنه..

وبخصوصية لا أدري إن كان أقراني كلهم خاضوا تجربتي نفسها كنت أندمج كليًّا؛ مراقبًا عن بُعد حركات الغريب وسكناته، فتجوب عيني المدى الفاصل ما بين سميرة وهو المنتهي عادة بدقائق الليل الأولى، وعندما تنقضي صلاة المغرب إيذانًا بحلول الليل وصمت الطرقات والأزقة.. وهكذا استمرت لعبة الغزل أيامًا إلى أن جاء يوم الفصل بقدمين مبتورتين، وأُلقي القبض على الغريب واقتيد إلى أقرب مخفر شرطة..

ومساء القبض المتيم تناثرت الشائعات والقصص والأقاويل المتضاربة.. نسجت من خيالات الناس الفارغين، حيث البحث عما يملأ ساعاتهم المتثائبة ولياليهم الطويلة.. كانت الآذان تشتاق إلى صوت الراوي والقصص التي ينسجها من معاناة البسطاء الذين يقعون فريسة المعاناة أو القهر اليومي، فلم يكن ثمة بيت إلا وقد مسه من أوصابها ما يمكن أن يزود الراوي بحكاية، فلم تكن وسائل اللهو قد أخذت مكانها بين الناس على الرغم مما كنا نسمع عن صندوق صغير تسكنه حياة مفعمة بالحركة يسمونه التلفزيون؛ بيد أن حقيقته تتجافى عن عقولنا الصغيرة التي لم تكن تبتعد أو تشتط عن تصورات الكبار عن أشياء تُذكر نقلًا عن الآخرين فتُقابل بالرفض والاستنكار؛ ناهيك بعقول الأطفال؛ إذ إن ما يصب في أدمغتهم بدوره يصب في رؤوسنا ونستوعبه كما يفهمونه، فلم تكن حدود فاصلة بين فهمنا للأشياء وإدراكهم لها، وربما انشغلت عقولنا بالأسئلة عن الأشياء من حولنا.. بينما انشغلت عقولهم بالبحث عن منافذ الرزق وتوفير لقمة العيش.. طغت حكاية سميرة على أحاديثنا اليومية وسهراتنا الليلية.. فمن قائل إنه كان يختلف إليها من حين لآخر حين كانت تمكنه منها، وتذهب بنا الحكايات إلى أبعد من ذلك.. إذ إن والد سميرة حاول اقتناصه وقتله.. وفي كل يوم ترقد في أذهاننا حكاية جديدة مزورة يكتنفها العنف، ربما تتطابق

الحكايات في بعض التفاصيل المتواترة، فلم تمسها الشكوك أو يعتريها النقص.. ومن ذلك أن أهل سميرة أرغموا الشاب على أن يتقدم لخطبتها صونًا لعرضها الذي أفسدته الشائعات، فلن يجرؤ شاب على التقدم لخطبتها بعد تلك الحادثة الأخلاقية المشينة التي لحقت بسميرة.. لم ندرك أن ذلك التخمين يتعارض تمامًا مع ضوابط المجتمع التي ترسمها الأعراف والعادات والتقاليد، لكن الشاب لم يتوانَ في حث والده في تزويجه إياها والتقدم لأهل فتاة أحلامه لطلب يدها، وتقديرًا للموقف المشين الذي تتعرض له العائلتان قرر الأب الذهاب إلى والد الفتاة لمفاتحته بالأمر مع علمه المسبق أن طلبه سيُقابل بالرفض حتمًا؛ فتحلُّ المهانة به وبأسرته بالرغم من كل ما يكتنف المشكلة عن أبعاد يقدرها الجميع، فلم يجرؤ على مصارحة ابنه بأسباب ترددده؛ إلا أنه قبل مبارزة القدر المحتوم الذي ينتظره..

وفي طريقه إلى بيت أهل سميرة صارت الأسئلة تتقافز أمام عينيه، فهل سيقبل بالإهانة التي سيتعرض لها؟ وهل سيكتفي والد سميرة بالرفض أو أنه سيلجأ إلى أسلوب آخر؟ وأشياء أخرى يعرفها، لكنه بخطواته الثقيلة وهمه الأثقل التمس طريق النيّات الحسنة، مع أنه كان مقتنعًا أن ابنه غير مؤهل للزواج، ليست سميرة أو أهل سميرة الاختيار

الأنسب، أو بالأحرى غير مقبول عرفًا.. تمنى أن تمتد به المسافات فلا يصل حتى يشبع تلك الأسئلة اللعينة إجابات منطقية ومعقولة..

وما هي إلا لحظات حتى تراءى له المنزل، والكل يرمقه يجتر الخطى نحو الباب الموارب دائمًا حيث راح ينقره نقرات خفيفة، ويبتعد مسافة عن وجه الباب المخضب بألوان صدئة.. هنيهات محسوبة وإذا بوالد سميرة يطل عليه من حلق الباب مستفسرًا عن القادم، وما إن تبينه حتى عاد يرتدي أثوابه اللائقة باستقبال ضيف لا يعرفه ولم يقدر على تمييز قسمات وجهه المتعرجة.. أفسح له الطريق إلى مجلس الرجال.. وما إن اطمأن وأخذ مكانه المناسب من صدر المجلس حتى أخذ يفحص قسماته، فلم تكن العادة أن يسأل الضيف عن اسمه أو أسباب زيارته، حتى يحظى بكرم الضيافة ويترك له حرية الإفصاح عن هويته وسر مجيئه.. لم تمضِ دقائق إلا والمفاجأة قد حطت على كاهل والد سميرة، وأصبحت أنفاسه تتصاعد وهو يكظم غيظه ودماءه المحترقة بلهب المهانة التي لحقت بابنته وكان التماس الأب المسكين محض افتراء ووقاحة، يقترفها والد الشاب المتهور الذي دنس عرض الفتاة البريئة..

أما والد الفتاة فلم تكن قواه تسعفه في التحكم بأعصابه حيث ذهبت كل محاولته في كظم غيظه سدًى، ففار في وجه الزائر المسكين

يرميه بأشد العبارات الجارحة وأنكاها.. حاول الضيف تهدئته وإعادته إلى سمته الطبيعي لكن دون جدوى، فلم يجد بدًّا من محاولة تبرير موقفه في طلب سميرة لابنه من والدها الذي جنحت به غيرته على ابنته إلى أبعد من الحدود المفتقرة للحكمة والأناة..

– لعل في زواجهما سترة..

سقطت هذه الكلمة التي طالما هرب منها كما تسقط الأخشاب الكبيرة المنتشية برائحة الوقود في أحضان النار الحارقة، فاستعرت وزاد وميضها وعلا صوت والد سميرة متسربًا إلى الشارع المفعم بالحركة، وراح الكل يشنف أذنيه كالعادة إلى مصدر الصوت الهادر حنقًا، واشرأبت الأعناق تنتظر ماذا سيسفر عنه الهجوم الكاسح المنبعث من منزل والد سميرة.. لم يجد والد الشاب المسكين بدًّا من الزج بنفسه إلى قارعة الطريق هربًا من اللعنات الموجهة إليه..

صارت الأنظار ترمقه إلى أن توارى بين الأزقة والخرائب..

منذ ذلك الحين لم نرَ وجه سميرة وضحكاتها البريئة.. لفها صمت البيت الداكن بالحزن على فضيحة صنعتها أيدٍ مجهولة غريبة.. بات وجه سميرة ذو التفاصيل الدقيقة وشعرها المجدول مرسومًا في حكاياتنا، لم

ننفض ذاكرتنا من روحها التي ظلت ترفرف إلى أن ضج ذات ليل بصراخ.. أقدام تخفق عبر الأزقة الضيقة.. أبواب تُفتح ثم تُغلق.. حشرجات أصوات مكظومة.. أخرج الناس أعناقهم بصمت عبر الكوى تسترق النظرات؛ محدقة بين خيوط الضوء الناعس الذي يهتز على أجساد تخترم الظلمة الحالكة إلى حيث بصيص نور يمكنهم من الانقضاض على طريدتهم.. مرة أخرى تبعث أسرار الليل وجه سميرة الذي قتله الحزن والخوف والقشعريرة.. هربت تحت جنح الظلام إلى مجهول طوى صفحاتها من ذاكرة الناس بعدما أفقدها عقلها!!

# الساحر الصغير

دلفت الأيام ثقيلة تتمطى برياح الشتاء القارس.. اندثر صوت الحي الذي عطف القلوب زمنًا نحو سميرة تحت وطأة هموم الحياة اليومية التي لم تكن تعني سوى الركض لاختطاف لقمة العيش من فم الجوع الذي يخيم بعرشه المزين بآهات المتضورين إلى أن حل ضيف خفيف الظل، قلب حياة الناس رأسًا على عقب، تشظى بين عدد من البيوت؛ تفتحت له شهية الكبار قبل الصغار، أمسى هاجسًا يوميًّا سحر أعين الناس، تفتق عن حياة وعوالم أخرى اشرأبت لها الأعناق في خفر ومواربة.. نسبوه إلى سحر هاروت وماروت؛ يستعيذون بالله منه آلاف المرات؛ طامحين في اقتنائه باغتنام فرصة سانحة في وهدة غير محسوبة من

ساعات الناس المكتظة بالترقب.. كانت مغامرة لها حساباتها الخاصة أولها: الطرد والإبعاد، ربما ليس كرهًا ومقتًا للطارق الجديد بقدر ما كان تعبيرًا عن شعور مستفز لعادات الناس وتقاليدهم؛ ولكي تنال شيئًا من الشفعة والمباركة تصدق بفتوى شرعية..

لم يعبأ بعضهم بما تلوكه ألسنة الناس وخورهم مقترفًا ما كان محرمًا في نظرهم؛ كنا وحدنا بعقولنا المتفتحة على حياة بدأت تغير من سحنتها، نتحرق شوقًا لمشاهدة الساحر الصغير، ثمة ألعاب مبهرة وحكايات مسلية وأصوات شجية يختزلها صندوق صغير كالسحر، فنخطط لاقتحام البيوتات للالتحاق بفوج الأطفال الصغار الذين سُمح لهم بمشاهدته.. وبما أننا لم نعد أطفالًا بالمعنى الدقيق للكلمة، فلا نجرؤ على الجلوس في موقع الصدارة خوفًا من افتضاح أمرنا.. فيقع ما لا تحمد عقباه.. كان المكان المناسب لمن هم في مثل أعمارنا هو أطراف الشوارع أو التجوال بين الأزقة؛ بحثًا عن مغامرات صبيانية، فكل واحد ينضوي على حكاية مختلقة نصدقها عنوة؛ التماسًا للمتعة وتزجية لوقت الفراغ الذي بدأ يعري وجهه القبيح.. وفي غضون مراهقة مشوبة بالتحدي والعناد تكونت خلية من المراهقين، منظمة إلى حد ما، تباشر خططًا شيطانية بشجاعة وإقدام تنتابنا لحظات فرح، نختلس علب السجائر من جيوب المارة من المدخنين نرتشفها بنشوة تحقق لنا الرضا التام وإحساسًا

بالرجولة، وفي تحدٍّ آخر واختبار لمهاراتنا نشاغل الباعة الراقدين طوال النهار وأجزاء من الليل داخل دكاكينهم الصغيرة المنتشرة بين الأحياء لاختلاس ما يمكن أن تطاله أيدينا، وعلى مهل ننسحب الواحد تلو الآخر.. كانت مرحلة قاسية مضنية وهامشية، أمسينا منبوذين نتكور على أنفسنا نؤجج أرواحنا بالمغامرات الليلية، نترصد الأبواب المفتوحة نسترق منها النظرات العابثة وبين الأزقة نعبث بالمارة، نعبر الأزقة بحثًا عن أعدائنا، والويل لعاثر الحظ الذي سيقع فريسة بين أيدينا؛ نأخذه بغتة بالضرب والرفس ثم نولي هربًا تاركين إياه يلملم أجزاءه المبعثرة تحت وطأة الألم لنبدأ رحلة ألذ وأشهى، نتعقب (لمبات) الشوارع المضاءة، نتصيدها بالحجارة؛ اختبارًا لمهارات التسديد لتحط بنا أقدامنا المنهكة على مرمًى قريب من المطاعم، نخاتل الأطعمة المعدة للتقديم ذات المذاقات الشهية، لحظات الضجيج وانهماك العاملين في تلبية طلبات الزبائن، نزحف إليها، وفي لحظات يُفاجَأ خادم المطعم بعملية سطو على الفور، وكعادته يرمي ببصره إلى حيث كنا نقتسم غلتنا الدسمة نتناوشها كفريسة بين أنياب ذئاب قتلها الجوع، ولأنه كان يماني الجنسية فلا يجرؤ على مجرد التفكير باتهامنا..

كان اليمنيون يمثلون السواد الأعظم من العمالة الوافدة، حيث كانوا الأقرب إلى تفاصيل حياتنا اليومية، يشكلون جزءًا من نسيج

مجتمعنا، بيد أن صوتهم كان خفيضًا واهيًا بعد أن كُشفت سوءة نفر منهم صبغت وجوههم بلون أحمر قانٍ، مفرزة مقتًا وكرهًا لهم جميعًا اصطلوا بناره ردحًا من الزمن.. كانت المعاناة الأشد توقع بهم على أيدينا في غدوهم ورواحهم.. باتوا مقهورين مغلوبين على أمرهم، بصوت محترق وذائقة مائعة، أمسى اليمنيون في موقف لا يُحسَدون عليه؛ مستهدفين من نزقنا الصبياني وممارسات أخرى كانت تشبه الدعوة للالتفات إلينا.. نكتب على الجدران عباراتنا السمجة، وفي ساعات العصاري ندلف إلى سوق النساء.. نخالطهن.. نجوسهن باللمس والقرص.. وأحيانًا الضرب على القفا! حيث الممارسة الألذ والأشهى، فلا يجرؤن على الشكوى أو الدفاع عن أنفسهن، مما خلق انطباعًا أنهن خرس لا يملكن صوتًا يدافعن به عن أنفسهن.. ربما خوفًا من الفضيحة التي قد تطالهن جراء ذلك، وربما لأن بعضهن يجدن المتعة في تلك الممارسات الصبيانية.. نميز بين هذه وتلك بردود أفعالهن المباشرة.. منهن من يبطئن مشيهن رغبة في الحصول على المزيد من اللمس أو الضرب..

# عام جديد

بدا عام جديد، بحلة مختلفة، ومذاق ونكهة مختلفة، وشمس تملأ الأرجاء بأشعتها الأرجوانية الناعمة.. أفيق متثاقلًا يجتاحني هم المدرسة بعد غياب طويل كلعنة محيقة، لم أكن أجرؤ على محاولة التسرب أو التأخير عن ساعة من ساعات الدراسة تحت أشد الظروف قسوة.. يرى أبي أن المدرسة هي حياتي في الصحة والمرض، وحينما تنشب الحمى قشعريرتها وتلهب أوصالي، أو يقدح جرح بلمعان قيح وصديد تسح بين تجاويف قدمي ونتوءاتها –وما أكثر الجراح وندوبها!– لا يسمح لي بالتخلف أو بأدنى تأخير.. كان دائمًا يردد:

– المدرسة تداويك.

ألعن المدرسة، ومن اخترع المدرسة، وكل من في المدرسة.. لم تعد ساحة اللعب غوايتي.. صرت أنهض في الصباح الباكر يراودني حلم أن أسمع خبر سقوط المدرسة أو تغيُّب أستاذ الصف ذي الوجه الأشد كآبة في المدرسة، أتخيل سوطه يهوي بلا رأفة على أجسادنا المفعمة بالعناد.. بتنا نمضغ مؤامرة نتسنح فرصة القبض عليه، ورد دين أثقل أيدينا وأجسادنا بما أسداه لنا على كل صغيرة وكبيرة دون رحمة أو شفقة.. ذات يوم كانت فرصة غير محسوبة ومواتية، حيث لا رقيب وبلا فواصل أو مناص؛ للتشفي طعم خاص للانتقام من الأستاذ (جعفر) العدو اللدود لكل طالب ألهب جسده بعصاه الغليظة.. بدت رائحة الدم النافر في عروقنا تنز من بين قبضات أيدينا.. فرصة مواتية وفريسة مبتغاة سهلة.. ها هو الآن جعفر الكلب يمشي منفردًا في زقاق ضيق.. اتفقنا على تقسيم الأدوار بعناية وحذر كي لا يرانا أو يكتشف أمرنا أحد.. كانت لحظات عارمة يوم فزعنا إليه برباطة جأش نرد له دينًا ثقيلًا بأمانة وإخلاص.. لحظات عارمة تلوح بلحظة تسديد دين له أثقل أعناقنا.. نقترب منها كلما اقترب منا فليس ثمة وقت يسعفه، ولا مسافة كافية يلوذ منها بالفرار.. تداعى إلى نفسه أن ثمة نذير شر يحدق به:

– اقترب أكثر أيها السافل الحقير.

لا مفر.. وقع في الفخ، لقد شرب من الكأس نفسه.. لم نترك بقعة من جسده إلا ولحقها الضرب وهو يصيح طلبًا للنجدة.. بينما العصا تنهال على جسده تلسعه بلا هوادة، لم تسعفه الدهشة والمباغتة على مدافعتنا.. خارت قواه تحت ضرباتنا الموجعة فسقط أرضًا متكورًا على نفسه كشرنقة.

خيمت الحادثة على كيان المدرسة لأكثر من أسبوعين في ترقب وحذر وصمت.. افترقنا كي لا نسترعي الانتباه انتظارًا لما ستسفر عنه التحقيقات الجارية.. كان كل طالب محط اشتباه.. استخرج من بين الفصول ثلة من الطلاب المشاكسين، فلم نكن بمنأًى عن أصابع الاتهام.. كانت كل مجموعة تُعرض على الأستاذ في محاولة يائسة لاكتشاف الجاني، لكنَّ ثمة خوفًا يسكن أوصاله المتداعية حينما يبصر بروق الشر تقدح بها أعيننا، يبدد خيوط الأدلة مرتحلًا إلى زوايا الصمت الجاثمة فوق جراحاته وآلامه، مما أكد لنا أنه تلقن الدرس الأول جيدًا، ولن تسعفه قوى التحدي في مجابهة أي خطر يتهدده إن لم يبتلع صوته المزمجر، راح بلا جدوى حفاظًا على ماء وجهه المنزوع يلفق حكايات ممجوجة ومضحكة في الوقت ذاته، على الرغم من المحاولات الحثيثة لاستمالة البعض ممن سمعوا بالحكاية لضبط شهاداتهم بلا طائل.. في النهاية نُسبت إلى لصوص هدفهم سرقة الأستاذ الذي قلما حمل معه

نقودًا أو أشياء ثمينة، فهو بالكاد يستر نفسه ببنطالين وقميصين يتناوبهما بين أيام الأسبوع، وربما لشهر وشهرين، مثيرًا كوامن الضحك وتعليقات الطلاب.. أصبح الحديث في الحي والمدرسة والمدارس المجاورة ينسج حول الأستاذ المضروب، إلى أن تلاشت رويدًا رويدًا بعدما شاغلتنا أيامًا وليالي حركت وجوم أيامنا الدراسية.. طُويت صفحة التحقيق ونُسبت إلى مجهول.. تنفسنا الصعداء، باتت أيامنا بعدها ثقيلة وكئيبة نجترُّ فيها هموم الدراسة وصلفها.. أعطتنا وجهًا آخر لم نكن نعرفه، صدرت تعليمات الإدارة بزيادة الضغط، وكأنها محاولة للتصفية وانتخاب الجادين من الطلاب مستخدمين مختلف وسائل التنفير.. تبدَّى لنا وجهٌ كالحٌ لم نعهده من قبل..

أصبحنا بين كفتين قدريتين لتحقيق الذات، فإما المُضي على كره، وإما الوقوف على جنبات طريق العابرين الذين يشقونه بثبات، وإن كنا نستذكر دروسنا للنجاح الأقرب للاستمتاع بعطلة طويلة بلا منغصات، إلا أن عروق الفتوة النابضة كانت تصرخ في وجوهنا لقبول التحدي؛ أملًا في مستقبل يحقق لنا طموحًا يراودنا لكننا نجهله، فمن لم تكن تسعفه أخلاقه ممن عيل صبرهم فقد نهجوا طريقًا رأوا أنه يحقق لهم استقلالًا وحرية ناجزة، متحللين من إسار المدرسة المعلق بين أعينهم على شكل حبل غليظ مربوط بقطعة خشبية متينة تُعرف بـ(الفلكة)، لم

ينج منها سوى نفر قليل جدًّا من الطلاب المجهولين بالنسبة إلينا، تسرب كثير من أقراننا، هربوا إلى الشوارع التي تحولت في أعيننا الآخذة بالاتساع إلى خنادق ضيقة..

كان صوت أبي الساكن بين أذني يثنيني عن مجرد التفكير في ترك المدرسة.. فهي المكان المقدس بالنسبة إليه الذي لا يقبل المساومة.. ظَلِلْتُ على اصطبار وفي صمود أشهرًا قليلة كانت بمثابة الأزمة المرحلية الخانقة.. طال فيها انتظارنا في ترقب ليوم خلاصنا للولوج في مرحلة يجب أن يُنظَر إلينا فيها كرجال، ولن تكتمل هذه الفرحة إلا بشهادة الخلاص موقعة من هيئة التعليم العليا.. نبت هذا الطموح وترعرع داخلي.. عرفت طريقي للكتاب لأول مرة حيث أقبع في زاوية قصية مضاءة جيدًا من المسجد.

بدأت أهمية الوقت تتسرب داخلي فتنمو معه أحلام بداياتها ساعة الخلاص، وأبعادها مترامية وغير واضحة المعالم.. أحسست بضغط عقارب الساعة بدقائقها.. وفي أثناء عالم لم أكن أعرف ملامحه أو تفاصيله من قبل بدأت أرقب كل شيء يخفق من حولي.. الأرجل قبل الوجوه.. شيء ما لم أعهده، وجوه مختلفة تطوقها ذقون سوداء فاحمة تبرز نضارة الوجوه ونصاعتها، تكشف عن ابتسامة غير كدرة لا

تنطفئ.. يتشابهون في تقاسيم وجوههم الملتحية وأثوابهم القصيرة، أرجل شبه عارية بدأت تختلف إلى المسجد معتادة المكوث فيه إلى ساعات متأخرة.. يتهادون في كنف سكينة غير معهودة.. صار حضورهم متميزًا، سواء مع إمام المسجد وبعض جماعة المصلين ذوي القيمة الاعتبارية الخاصة.

القادمون الجدد ليسوا من أبناء الحي.. بدأت أتعرف على أسلوب مختلف في التعامل، وألفاظ وعبارات غير معهودة تقاطع حبال صمتي وحيرتي.. ثمة وشوشات تمتد خيوطها منسكبة في سمعي.. أشنف أذنيَّ أكثر لحديث طويل ومرتب لا ينتهي.. سمعت منهم بعض كلام حول قبو المسجد (بالخلوة) غرف جانبية داخلية أو خارجية حاولت الاقتراب أكثر لاقتناص ما يتوارى خلف لقاءات القادمين الجدد.. وفي كل مرة ينصرفون فيها من المسجد يلقون التحية والابتسامات تملأ وجوههم.. تلك البشاشة والأريحية البادية خلقت حبالًا خمنت أنها حتمًا ستمدني وتجعلني متاخمًا لهم ولو بحدود السمع، وهو ما حدث فعلًا.. كانت عباراتهم مشحونة طاقة وألفة، حركت مشاعر قربتني منهم أكثر.. وبأدب جمٍّ وحياء ظاهر كانوا يحاولون الاعتذار عن إطالة الوقوف معي تقديرًا لوقت المذاكرة.

ذات يوم دُعيت للانضمام إلى أحاديثهم.. كانت دعوة غير معتادة لا أفهم منها سوى أنها من خصوصيات الكبار.. لم أملك إلا القبول مبتهجًا مغتبطًا، فهي مناسبة للاقتراب منهم أكثر.. كنت متحفزًا ومتحينًا ساعة مماثلة.. حانت الساعة وبعد صلاة العشاء انسحبنا من المسجد بهدوء ونظام، وفي طريق نعرف تفاصيله جيدًا كان احتفاءً لم نتعود عليه، فقد كنا هاربين مطاردين نلاحق ظلنا عبر الأزقة المتعرجة والأحياء المترابطة بلا نظام.. بدت الأحاديث جياشة ساحرة، أحاديث منتظمة لا تخلو من التعليقات المؤدبة ومواقف أسمعها أول مرة وأضحك لها.

طاف الحديث خلال اللقاء في ضيافتهم حول العديد من الأفكار، تمحورت حول أهمية استغلال الوقت.. كنت أستمع منصتًا بسعادة غامرة.. كانت جلسة استثنائية، وقبيل ساعة الانصراف أعلن أكبرهم عن اكتمال تأسيس مكتبة في زاوية من زوايا المسجد الخارجية مع التوصيات بضرورة الالتحاق بها.. كانت سعادة غامرة وميلادًا ينفتح على حياة جديدة.. خرجت مأهولًا بأفكار تنعش خاطري.. انطلقنا نتلمس طريقنا في غمرة السكون والظلمة.. كنت مستقرًّا مطمئن الجنان.. عدت إلى المنزل، أخذت أتمتم: (أخوكم في الله)!! لغة جديدة دخلت قاموس حياتي اليومية.. بدأت أفكر كيف أعوِّد نفسي عليها،

فثمة روح أخرى مملوءة حياة تتلبسني.. تلك المشاعر الممزوجة بالفرحة والترقب ارتطمت بتعنيف والدي على التأخر وقلقه المستبد كعادته خوفًا من أن يكون قد أصابني مكروه، لم يخلد إلى النوم حتى صب جام غضبه وأفرغ عبارات السباب والشتم؛ لأول مرة أكتشف المعاني الحقيقية لتلك الكلمات الفجة، جزء مكمل لقاموس يومي متداول وغير مستنكر.. كان أبي يتحفظ جدًّا على إطلاق تلك العبارات إلا في الحالات القصوى.. التمست له العذر، فمن غير اللائق أن أتغيب لساعات متأخرة من الليل دون علمه أخبرته عن سبب تغيبي واختفائي عن الحي طوال ثلاث ساعات ليلية.. خالجته علامات استفهام كثيرة.. أدركت أنه راح يحلل مضامين ما قصصته عليه.. لم تكن من نوع الحجج التي طالما ركبتها بشكل مضحك وفج كي يعفو عني ويكف عن معاقبتي.

# نقطة تحول

بدأ والدي مع مرور الأيام يعتاد تدريجيًّا غيابي الطويل عن المنزل.. كان أحيانًا لا يراني أيامًا لظروف عمله وانشغالي بالتردد على مكتبة المسجد الناشئة في ظل ترقب أولاد الحي، وانبهار الآباء بهذا العمل وتمتعهم بمشاهدتنا متحلقين نتلو آيات القرآن الكريم بأصوات شجية مسموعة، نتدارس تفاسيرها وبعض كتب السيرة.. ويزداد وميض إعجابهم بابتسامات تمنحنا درجات عالية من الرضا.. نسابقهم عند صلاة الفجر إلى الصف الأول وبعد انقضائها نلتف حول الشيخ (حمود) الموجه للمكتبة ولروادها منصتًا إلى ما حفظناه من مقاطع مقررة سلفًا من سور القرآن.. لم تزايلني خلجات استشرت في كياني كمن

يغرقني بفيض كراماته ساعة قدمني له أحدهم.. كان ذا هيبة ووقار.. ينصت كثيرًا ويتحدث قليلًا.. يتحدث بعلم.. له ابتسامة مضيئة لا تفارقه.. بين يديه أصبحنا حلقة محكمة لا يمكن أن تُنقض عراها؛ موزعين إلى جماعات لكل واحدة منها مسؤول يرجع إليه.. تعرفنا على شيء اسمه نظام.. رسم لنا طريقًا مختلفًا لم نعهده من قبل، مؤطرًا بالسمع والطاعة، ومزينًا بجميل الكلمات وعذب العبارات..

أخذت ملامح وتقاسيم وجه الشارع والأزقة تتلاشى من أذهاننا، وأصبح الهم الذي يراودنا كبيرًا جدًّا.. ذابت قلوبنا مع أصوات الثكالى في فلسطين.. تأججت مشاعرنا بروح الفداء بما امتلأت به عقولنا الصغيرة من معاني التضحية في سبيل الله.. تقطر أنفاسنا بحرارة الإيمان، انكشف العالم الذي راح ينأى عن عقولنا الصغيرة بقدر ما امتلأت به من آيات الاعتبار وتحقير الأنا أن ندع اشتغالنا بقراءة القرآن وتفاسيره والتاريخ وأعلامه وننتهز الفرصة في ترديد بعض الأناشيد الجياشة التي تزرع فينا قيمة الجهاد والثبات والتضحية، وفي سهراتنا نركن إلى المزاح والتندر ببعض المواقف المضحكة.. لم تكن تنتهي لو أُطلِق لها العنان، تتفجر ينابيع ثرة تملأ أرواحنا باللامبالاة..

كان الشيخ يعلمنا دائمًا أن الضحك يميت القلب، ولا يفتأ يذكرنا بوصايا الإمام الشهيد البنا.. ويحرضنا على مداومة العمل.. وكلمات استلت من قاموس بدأنا نعوِّد أسماعنا عليها ونروِّض عقولنا على تقبل العمل بصبر وإخاء وإيثار؛ إذ لم تكن تشي بأكثر من الابتعاد عن الأنا بأشكالها، أن نتطهر من شهوات النفس وعالم الرذيلة المحيق بنا والمادة؛ وإن لم تكن المادة بالنسبة إلينا تعني أكثر من المحسوس.

وتحت وطأة هذه التعاليم الصارمة فقدنا الإحساس بمتعة الشارع، والانطلاق بين أركانه.. غابت تفاصيل وجوه الناس وبدت علاقاتنا بهم سطحية وجافة؛ فهم في حدود رؤيتنا سواء، فلا فرق بين قريب أو بعيد حتى مع أهلينا وأقاربنا، كُرس مفهوم القابض على دينه كالقابض على الجمر.. أحسسنا بحرارة الجمر الملتهب تقدح به أعين الناس؛ فنكتوي بلهيبها لمجرد إننا متفردون في ملابسنا القصيرة التي تثير الضحك وتبعث على تعليقات كل من نمر به، وصمتنا الذي نقابل به تلك الوجوه التي تعلوها علامات الاستغراب لمنظر (مطوع) لا كما عهدوه من قبل، حيث كان يعني سابقًا إمام المسجد..

الغرباء ذوو الوجوه البيضاء والذقون السوداء انسلوا فجأة حاملين شعلة إلهية دفعتهم لاقتحام حياتنا المسكونة بالضجيج مقتنصين ساعات

العبث واللهو والفراغ التي تملأ أرواح المراهقين.. أحالوها إلى حياة مفعمة بالعبادة.. فكلما ازدادت حدة تلك النظرات المستنكرة ازداد إيماننا بقيمة العمل الذي كنا نحث الخطى لإنجازه، ساعين لكسب فضاءات ومساحات أخرى بين أبناء الأحياء المجاورة.. استشرى نشاطنا بين أبناء الأحياء المجاورة، فسرقهم من كل شيء يرتبط بالبيت أو الشارع وأعاد صياغتهم؛ مما شكل قلقًا نضحت به وجوه الآباء.. تمتد لقاءاتنا ساعات طويلة، نتوارى أيامًا وربما أسابيع في رحلات لا تنتهي إلى (البر)، الفضاء الأرحب حيث نقبع بعيدين عن أعين المتطفلين والناقمين أو لأداء مناسك العمرة.. أذكر أول عمرة قمنا بها كانت رحلة استثنائية مشحونة بالتوتر والانتظار منذ الساعة الأولى لانطلاقتنا محشورين في سيارة (وانيت) تغمرنا فرحة تغسل الرهق عن وجوهنا.. نشدو ساعة بألحان الأناشيد، وأخرى نرهف سمعنا لحكايات معبرةً، تذوب أرواحنا في هيكل خرافي مجرد من أدوات المادة.. لا تغفو عين إلا وعين أخرى تحرسها، وساعة الغروب حيث تتمايل الشمس في خفر مجللة بلون يحترق حمرة نرتل أورادنا مبتهلين إلى الله، وأعيننا تسبح في آفاق مترعة بالإيمان المطلق.. نرى وجه الله في أنحاء الأرض الست إلى أن صمت عويل السيارة المنتحبة على رمضاء الإسفلت واجمة قبالة الميقات؛ تقافزنا فرحين حاملين لباس الإحرام.. قطعتان من الكتان

الأبيض تُلَفَّان حول الجسد أوقعتاني في إشكال، فاتني أن أتدرب على إحكام لفهما.. إزاء حراجة الموقف ولكيلا أسقط مغبة الفضيحة شددتهما بكل ما أوتيت من قوة بطريقة مضحكة، مما لم يحقق لي الطمأنينة الكافية بأنني لست عاريًا ألبتة.. دلفنا إلى قعر السيارة نتمتم بالتهليل والتسبيح تجوب أعيننا فضاء الطريق تسابقنا حجارة سوداء كالحة تثير فينا الرهبة الطافرة منذ ساعة تلحفنا البياض.. بدأنا نوغل في تفاصيل تضاريس غريبة بين جبال سوداء مشذبة وشاهقة تلقي بظلالها على البلد الحرام.. تتمدد أرواحنا طلبًا للانعتاق من حالة الذعر والخوف والقشعريرة التي تنتابنا، أحسست أن عرقًا باردًا ينضح من جبيني..

حاولت أن أبتلع ريقي، ظلت أعيننا معلقة في أفق تحدد ملامحه الأبنية المتراصة وكأنها تنبت فجأة.. تحفها الجبال.. تحنو عليها إلى أن تبدت منارات شاهقة تقارع في شموخها عنان السماء ولا شيء غير ذلك.. وبين الأزقة الجبلية المتعرجة نكابدها صعودًا ونزولًا تجلى وجه بيت الله الحرام.. اعترتني هزة تشوك لها بدني، وانفلت لساني يلهج بالتلبية والتسبيح والتكبير.. وعندما صافحت عيني من بعيد مخترقة احتدام الأجساد أستار الكعبة اشتعل فتيل الإيمان، وتدفقت روحي كأنما أزيحت أستار الزمان والمكان كاشفة عن تاريخ منذ سيدنا إبراهيم ونبينا

محمد –عليهما الصلاة والتسليم– إلى عصر البطولات والفتح المبين.. تسربت إلى أنفي روائح غريبة مختلطة يصعب تفكيكها أو تمييزها، رائحة تاريخية أيضًا من خصائص الزمن الراقد في بلد الله الأمين، حفرت معالمها في ذاكرتي وروحي حالة وثقت عرى التلاحم بيننا؛ مؤكدة انتماءنا إلى عصور تشهد عليها الأمكنة المقدسة.

# الحركة والتغيير

كانت الطمأنينة والثقة تواكبان أعمالنا اليومية، ننضوي تحت شعار جميل لا يخالطه شك أو ريبة؛ شعار يرفل بحلة من الصلاح والتقوى؛ ربما لأننا أصبحنا نتسابق إلى صلاة الفجر ونحتل الصفوف الأولى منها.. ترمقنا أنظار الكبار أيضًا استغرابًا ولربما أحيانًا استفهامًا وتعجبًا.. عرفنا طريقنا إلى الاعتماد على الذات في كل شؤوننا الخاصة، وإن لم تكن خاصة بمعنى الكلمة، فقد كنا مأسورين بتعاليم القائد لا نخرج عنها قيد أنملة.. يرسم خطواتنا اليومية ونخبره بتفاصيل ما يحدث لنا كل ساعة حتى مع أهلنا؛ لذلك لا يمكن أن تخفى عنه أدق التفاصيل وأوعرها، نخشى أو نتردد في مكاشفته بما يعتمل في صدورنا؛ فلا نجده إلا كما

عهدناه لينًا في توجيهاته، بسيطًا في مقابلته للأحداث والملمات التي تقع.. أخذنا نتبع خطواته في مقابلته للكبير والصغير من الوقائع بقلوب مملوءة إيمانًا، وبتسليم لما تحققه قرباتنا إلى الله من علامات الرضا.. وتتضخم ثقتنا بإيماننا عندما يكون شيخنا راضيًا تمامًا، وقلما كنا نراه ساخطًا أو عابئًا.. ينزل إلى مستوى أصغر شاب فينا، وعندما نتحلق في دائرة يشرع بالتحدث في هيبة وإجلال، نخضع واجمين منصتين نتلقف كل كلمة يتفوه بها.. يستشهد أثناء حديثه ببعض الأسماء لشخصيات إسلامية لازمتنا تتحرك معنا وبنا (كسيد قطب، ومحمد قطب، وعلي جريشة، وحسن الهضيبي، وفتحي يكن، ومحمد جمال، ونجيب الكيلاني، ولطالما حذرنا من أسماء أخرى خوفًا من التورط ببعض مؤلفاتهم على حين غفلة لما تحمله بين طياتها من انحرافات أو هجوم، كالعقاد، وطه حسين، ومحمد عبده، والأفغاني، وزكي نجيب، والطهطاوي، وقاسم أمين، والحصري... قائمة طويلة لا تنتهي تجسد الإثم، جرت على الأمة الإسلامية الويلات والنكبات وعلى الإسلام والمسلمين) يصمهم بـ(المنهزمين) –على حد قوله–.

باتت هذه الأسماء محفورة كالوشم في أذهاننا، فلم يجرؤ أحدنا على اختيار كتاب يقرؤه بنفسه؛ بل يرشَّح من قبل شيخنا وكبيرنا وربما طلب أحيانًا من بعضنا قراءة كتاب لعرضه في جلسات الجماعة التي عادة ما

كانت تُعقد بعد صلاة العشاء نخصصها للقراءة، ونتجاذب أفكارًا ترمي إلى تكريس وحدة الجماعة.. فلا نخرج عادة إلا بشحنات مغناطيسية تشدنا إلى عمق العمل المنظم؛ بوصفنا الجزء المضيء داخل مجتمع معتم وعالم أشد عتمة.. نحن أولئك القابضون على أحر من الجمر لا غيرنا.. يجب أن نتحمل ثقل مسؤولية تغيير وجه مجتمعنا المملوء بالآثام؛ حاملين جذوة الإيمان الآخذة بالدنو، ومن ثم الأفول، إن لم نتبادرها بالعمل والانتشار بين صفوف الشباب في الشارع والمدرسة.. بدا ذلك واضحًا من خلال تصرفاتنا وتحركاتنا بين صفوف الطلبة متمثلين منهج شيخنا في عملية إقناع الآخر، مبتعدين عن كثرة الكلام، تاركين لهم الحكم والاقتناع عمليًّا بسلوك يعفينا من شرح ما نؤمن به.

أصبحنا نمثل كتلة فاعلة داخل المدرسة.. استعانت الإدارة المدرسية بقدراتنا للإشراف على بعض الأنشطة، وللمرة الأولى في تاريخ المدرسة تكونت جمعية للتوعية الإسلامية.. لاقت استحسانًا وقَبولًا من لدن كثير من الطلبة.. وأوغرت صدور كثير من المعارضين ظلوا يتربصون بنا في ساحة المدرسة في محاولات للاستثارة؛ بيد أن رسالتنا كانت مغايرة ذات ذائقة نستطعمها؛ تدخل في إطار الجهاد الذي يحثنا عليه شيخنا، فلم يفتأ يذكرنا بتاريخ الدعوة المحمدية وما لاقاه الرسول –صلى الله عليه وسلم– من عنت في بداية الدعوة إلى الله؛ إذ كان الصراع مقدرًا سلفًا

وداخلًا في حساباتنا، فكلما زادت مصادر المضايقات تضاعف إيماننا بجدية ما نقوم به، فقد غدونا رجالًا في نظر مجتمعنا المحيط بنا على الرغم من كل المحاولات للانتقاص من أهمية وجودنا وفاعلية تأثيرنا وحومة الشكوك من حولنا في أهدافنا، والمخاوف التي تراود المجتمع المحيط بنا وعلينا مما نقوم به.. حفلت أيامنا بزخم الأنشطة المختلفة فلا ساعة يمكن أن تنصرم إلا ولها مقابل، حتى النوم الذي يبدأ يداعب أجفانًا منذ ساعات الليل الأولى يكشف عن صور خيالات ترتسم في أعيننا عن مستقبل أمة تُبنى لبناتها بأيدينا.. وآخرون نعرفهم بوجوههم وربما بأسمائهم ونحلم باليوم الذي يكتمل فيه بناء الأمة وتشتبك أجزاؤها المفتتة تحت وطأة الأيديولوجيات والأفكار الغربية والشرقية.. نلعن الغرب آلاف المرات، ونبتهل إلى الله أن يدمر دولة الشرق العظمى في كل صلاة، فلا تغمض أجفاننا إلا على حلم يمتد إلى العصور الأولى من الإسلام ولا يقف إلا على آخر أطراف الأندلس.. ربما نصبح وقطرات الدموع لا تزال تبلل أجفاننا وحرقة صدرنا المشتعلة كالبركان خلفت تربة خصبة محملة بمعادن نفيسة بين الأمل واستقبال الحياة بوجه مشرق.

# القادة الجدد

في معترك الأعمال اليومية جاء آخرون يبحثون عن أدوار قيادية تضعهم في حسابات النقلة النوعية للعمل الصحوي، لملموا شبابًا صغارًا بمغريات شتى، أهمها لهم؛ مضاعفة درجات أعمال السنة.. وتمرير نتائج الامتحانات مستقبلًا.. فما إن يلتف حولهم الفتيان حتى ينفضوا سريعًا من حولهم، كانوا يتقمصون شخصية شيخنا البسيطة والمسالمة.. فلا تلبث أن يعود إليهم سمتهم –لا شعوريًّا– المختبئ وراء ذقونهم، وابتساماتهم المتكلفة، وقد خانتهم قوى تحملهم لينكشفوا كالمهرجين متخبطين في ظلام بصيرتهم العمياء.. منهم الشيخ عمر الذي ظل يبحث عن موقع قدم مناسب في خطى انهماكنا في استقبال الأعضاء

الجدد، وتقريبهم من أجوائنا.. كان من عاداتنا المقررة سلفًا إجراء بعض الاختبارات العملية وسبر أغوار الأعضاء الجدد وتقسيمهم إلى فئات ومراحل لها اختباراتها الخاصة، وفي النهاية يصدر الحكم المناسب بجدواهم؛ لتبدأ مرحلة التكاليف والأوامر المضنية لاختبار القدرة على التحمل مع استمرار المراقبة حتى في الساعات الخاصة، مثل: محافظته على الصلاة في وقتها، ومدى تعلقه بأجواء الحارة التي يقطنها.. في ظل هذه الحقبة المحمومة بإعادة بناء الجماعة برز الشيخ عمر مستلًا قوى التحدي والمجابهة؛ طامعًا في تكوين جماعة يقودها إلى حيث يروم، تضعه في مواجهة مباشرة لنا، غير مدرك لأهمية تكريس الجهود وتوحيد الصفوف في خدمة هدف واحد؛ فعندما أدرك أنه لا مكان يلبي رغباته ويحقق طموحه في اعتلاء سدة القيادة بيننا، انتهج أسلوب التفرقة؛ محاولًا اختراق صفوفنا المتماسكة في محاولة أخيرة للاستئثار بمقعد متقدم من القيادة.. يزيد من حنقه وربما اندهاشه قوة صمودنا وإعراضنا عن تفاهاته.. سألني ذات يوم:

– أين تذهبون مساءً؟

أجبته مدركًا مقصده:

– إلى حيث يرشدنا الشيخ.

- أين؟

- اسأل الشيخ وهو يجيبك.

لم أود إطالة الحديث معه، فكانت الإجابة مختصرة.

حاول إطالة الحوار ليدرك في النهاية أنه أمام شاب درس جيدًا ما أُملي عليه، وفهم أن ثمة محركًا لا يعرفه تمكن من قلوبنا.

فطفق معلنًا بين صفوف الشباب عن ولادة جماعة برئاسته ظل يطاردهم متسولًا التحاقهم بها.. كان مكشوفًا إلى حد السخرية.. ذهبت محاولاته أدراج الرياح.. حثنا شيخنا على عدم المبالاة واستمرار العمل والابتعاد عن أدنى صدام أو اختلاف ربما يؤثر في مسيرة الدعوة.

جاءني مرة طالبًا تنظيم رحلة مشتركة بيننا، فاستأذنته مهلة إلى الغد.. مما عزز قناعته بأننا لا ندير أنفسنا كاشفًا عن وجهه الأسوأ، حيث صار يرغي بعبارات تنم عن كراهية مقيتة؛ ولقناعتنا بعدم قدرته على طرح نفسه بشكل مقنع يرضيه ومن معه من المشاكسين، وهم ثلة استطاع لملمتهم بلا رابط يوحدهم؛ ولأنه لا يمتلك مواهب تمكنه من تنظيم جماعة ذات مقومات خاصة، فقد تسلل العطب إلى خليته الهشة، ودب فيها النزاع وشرعت بالانتقاض على نفسها، وحلت بها مشكلات

شتى، مما أثار حنقه، فصار يقعد لنا في كل مرصد، فلا نسمع منه إلا عبارات الوعيد والتهديد إذا ما استقبلنا أحدًا من جماعته على الرغم من أننا لم نكن نمتلك قرار رفض أي عنصر جديد يريد الالتحاق بصفوفنا، وعلى الرغم مما كنا نضمره للعناصر الجديدة من عدم وئام وألفة، واعتقادنا أنهم بحاجة إلى معالجة صعبة جدًّا وبحنكة شيخنا، فقد قمنا بعزلهم عن الجماعة بشغلهم ببعض الأنشطة التي تجعلهم دائمًا في الظل، وكان نوعًا من التغيير، كإرسالهم للبحث عن أماكن نائية في البرية للخروج إليها في رحلاتنا المنتظمة ونعهد إليهم بأنشطة تبعدهم عن الالتحام بنا بشكل مباشر، فمن يبقى منهم صامدًا مذعنًا لإرادتنا وضعناه في مرحلة متقدمة من مراحل الاختبار، وقلما يحتمل ويصمد أحد منهم..

أما الشيخ عمر فلم يستسلم لقدراته المتواضعة؛ متجهًا بمحاولاته إلى أولياء الأمور يؤلبهم ضد ما نقوم به.. تحت مظلة تبريرات واهية، مثل التأثير على تحصيلهم الدراسي، مع أننا نحاول جاهدين طبقًا لتوصيات شيخنا أن نظل دائمًا متفوقين لكسب فضاءات أكبر ومساحة أوسع.. مما سيخدم بدوره جهودنا المنظمة لتوسيع قاعدتنا الشبابية، وهو ما أحرزناه فعلًا في السنة الأولى والسنة الثانية من تدريس نشاطاتنا وتأسيس قاعدة انطلاقتنا كجماعة يعوَّل عليها في خدمة

الأمة.. لذلك فعندما باءت محاولاته الأخيرة بالفشل والخسران المبين توقف فجأة وبالصورة نفسها التي ظهر فيها؛ عندها تنفسنا الصعداء، خصوصًا إننا كنا مقبلين على موسم إجازات وأعمال كبيرة تنتظرنا والجهود يجب أن تُضاعف، حسب الخطة الموضوعة التي طالما حلمنا بها، فهي فرصة أخرى نحقق وجودنا من خلالها.

(المركز الصيفي) الفكرة التي لم نعهدها من قبل والتجربة الجديدة التي سوف نخوض غمارها ونحن متأكدون من نجاحنا المستمد من ثقتنا بشيخنا.. وزاد من فرحنا أنه سيقوم بنفسه بإدارة المركز الصيفي، وستكون توصياته بمثابة الأجنحة التي ستحلق بنا؛ لأن الصمود الذي أحرزناه في وجه الشيخ عمر عزز ثقته بنا وأكد قدرتنا على مجابهة الدخلاء ومآربهم.. داخل أروقة المركز الصيفي قُسمت الأعمال على أُسر كُلف كل واحدٍ منا بالإشراف على إحداها؛ حتمًا كانت الأسماء المرشحة للأُسر معروفة سلفًا عدا الأسماء المستجدة، فكانت تُوَزَّع بالتساوي، ويتبع عملية التقسيم العام تقسيم داخلي لتتحقق عملية المتابعة الدقيقة للأعضاء، وتقديم التقارير عنهم، وإن لم تكن مكتوبة فقد كانت تحظى بالمصداقية والمصادقة الفورية.. وعلى ضوئها يتم رسم مستقبل العضو داخل الجماعة، فإما الاحتواء وإما الاستبعاد بطريقة

أيضًا مدروسة ومضمونة النتائج، فلربما أدرك العضو المنفي مباشرة ما يُحاك له، وقدم النتائج باختفائه إلى الأبد.

كنا أنا وخالد وإبراهيم وأحمد في مركز القيادة المتقدم مما يلي الشيخ حمود نمثل العين الرقيبة على تصرفات مجموعات الأسر بأكملها، إضافة إلى الإدارة الموجهة من شيخنا والملهم لنا في تصرفاتنا والمؤسس لحركاتنا المدفوعة بوحي منه.. وننطلق عادة من رؤية واحدة لا تختلف.. نتفق عليها لا إراديًّا، فلم تكن أهدافنا مائعة أو أساليب العمل لدينا مضطربة؛ فالفكرة التي ننطلق منها تؤسس القاعدة الأولى للعمل الجمعي.. نختلف إلى بعضنا ونتشاور بعيدًا عن أجواء العمل النشطوي.. تُطرح الأفكار أو المشكلات بصورة منسقة، وتوضع الحلول بشكل واضح وسريع، قلما تختلف أو تتعارض مع آليات العمل لصقل طاقاتنا العقلية والنفسية وربما المادية أحيانًا؛ إذ لم تكن تقع بأيدينا النقود إلا نادرًا، وعلى الرغم من ذلك لم نتضور أو نعانِ من جرَّاء ذلك النقص.. أكثر المشكلات ناتجة عن بعض العناصر التي تتغلغل بين الأُسر ومجموعات الطلاب؛ بهدف اقتناص صغار السن من أعضاء الأُسر؛ إلا أن أمرهم يُفتضَح بسهولة ويُسر، فالأعمال المقسمة بين الأُسر لا تسمح بمجرد التفكير بشيء آخر عدا إنجاز المهمات، فقد وجد المشاركون من خلال الأُسر الطريق إلى معنى المنافسة في تحقيق الأهداف

الموضوعة في الوقت المناسب؛ لذلك لا تجد تلك العناصر الشاذة الفرصة السانحة لإدراك مآربهم على الرغم من محاولاتهم المتكررة والمتضمنة صنوف الإغراءات.. حاول أحدهم ذات مرة أن يقتنص فرصة طال انتظارها، محاولًا في أساليب متعددة أن يوقع بأحد الصغار الأبرياء ويقتاده إلى أحد الفصول النائية، في وقت كنا منهمكين فيه بنشاط مسرحي ليلي.. انصرفنا بالكامل في التجهيز والإعداد، فليس ثمة فرصة للخروج من صالة المسرح إلا بعد انتهاء البرنامج المسرحي.. حاول المتربص إقناع الفتى الصغير واستدراجه لتمكينه من نفسه والفتى يتمنع ويدافعه وقد استبد به الخوف.

– لا تخف.. كلهم مشغولون ونحن وحدنا.

– لا، لا.. أنا خائف.. ماذا تريد أن تفعل؟

وبينما هذا الحوار المحموم بالشهوة والخوف ومدافعة الصغير سقط الصوت سهوًا في أذني أحمد وهو في طريقه متجهًا إلى حيث كنا.. اندفع لا إراديًّا إلى مصدر الصوت؛ مخمنًا أن ثمة جريمة لا أخلاقية تُرتكَب في منأًى عن عين الرقيب.. حلت الكارثة كاشفة عن فصول آثمة بطلها الشاب نفسه الذي حرنا فيه طويلًا؛ فلم تعد تصرفاته نائية عما خطه شيخنا قيد أنملة مندمجًا كليًّا بالجماعة شكلًا ومضمونًا، كان يلهب

صدورنا حماسًا ممزوجًا بالشكوك إلى أن وقع فريسة نواياه المبيتة.. أمسك به أحمد متلبسًا بمشروع جريمة، كان يخاتلنا لارتكابها بعيدًا عن أعيننا المفتوحة تمامًا على كل شيء.. فأوسعه ضربًا ولكمًا وهو لا يحرك ساكنًا.. تفشت هذه الحادثة مسببة انسحاب ثلة من شباب الصحوة المرتقبين والمريدين، من جراء خوف الآباء من تكرار الحادثة مع أبنائهم، وحفاظًا على أبنائهم، فلم تعد المكان الآمن لأبنائهم، فلربما يسمح الشارع بمراقبة أكثر، أو لأن ما كان يحدث بين خرائبها لا يصل إلى الأسماع.. بات الشارع بعد هذه الحادثة المكان الأشد أمنًا من أنشطة المراكز الصيفية؛ لاعتقادهم أن الأبناء سيظلون تحت أعينهم ورقابتهم.. كان بعض الناس يرى أن المركز الصيفي فرصة ممتازة للتخلص منهم لمدة طويلة من النهار وأجزاء من الليل.

# البحث عن المستحيل

بدت علاقاتنا ببعضنا أشبه ما تكون بالضريبة التي ندفعها مقابل انسياقنا وراء هالة أضواء تنبعث من اتجاه محدد، تشدنا إليها.. نهرول في سباق نحو أقرب نقطة ضوء أو فرجة تتسلل منها خيوط ذهبية ناعمة، فنوغل في عالمها السرمدي الساحر بلا حساب، غير عابئين بما تقذف به ألسنة الناس التي تطل كرؤوس الشياطين النكرة.. اتخذنا من تعليمات الشيخ وما يحدده وفق مرجعيات خاصة سلوكًا للمجابهة، وحائطًا نلوذ به، وطوق نجاة من مجتمع نراه كالمستنقع الآسن.. كانت تعاليم الشيخ مثل تميمة لا تسمح أوقاتنا بالتدقيق في مفرداتها.. فالسؤال أقرب ما يكون إلى اقتراف سيئة، والسيئة كما يقول (الشيخ) تلد أختها.. وإزاء

ما حل بالجماعة على إثر فضيحة محاولة الاعتداء على أحد صغار المنتسبين إليها، وبالرغم من وطأة الأسئلة القاسية التي تجابهنا لم نملك إلا الإذعان إلى توجيهات الشيخ بعدم الالتفات إلى ما حصل، أو حتى الإجابة على ما يطرحه الآخرون، مما خلق إشكالًا كبيرًا بين الجماعات الأخرى، وراحت الروايات يسوق بعضها بعضًا بما تهب به رياح الحارات المجاورة، وأحاديث الناس في مجالسهم.. نرقب كل ذلك عن كثب دون استجابة لكم الأسئلة التي تمطرنا من كل حدب وصوب؛ إمعانًا منَّا بامتثال أوامر الشيخ القائد الذي لا يفتأ دائمًا يذكرنا بأهمية ما نحن بصدده، ويمثل لنا طرق النار المحفوفة بالشهوات وطرق الجنة المحفوفة بالعذابات والمكاره، فطوبى للصابرين..

ويسوق قصصًا أخرى لما لاقاه الرسل وأولو العزم منهم إلى أقصى ما لاقاه محمد –صلى الله عليه وسلم– في طريق الدعوة، ثم ننتشي سعادة غامرة وإصرارًا على مجابهة الأخطار والأهوال، فيبدو العالم من حولنا كقطعة من النار نصطلي بلهيبها ونمسكها كقطع مُتجمرة، نتذوق منها حلاوة التقلب بأفكار إيمانية، فحواها إصلاح المجتمع الذي ينخره السوس ويطمره الجهل، فيتجسد الآخرون أمام أعيننا أجزاءً من هذا المجتمع العفن، فلا نشاركه همومه؛ فقد كانت الآخرة والجنة معلقة دائمًا في مخيلتنا تتراءى النار بين أعطاف كل فرد من المجتمع خارج نطاق ما

نصبو إليه.. أصبحت الفكرة القائمة هي رفض أخلاق المجتمع وعاداته السائدة، وأن الارتباط به وبأي شكل من الأشكال يعني دنسًا يجب أن نتطهر منه.. طفق بعضنا يجابه هذه المظاهر بكل ما أوتي من قوة؛ لأنها من أشكال المنكر الذي يجب تغييره باليد أو اللسان أو القلب؛ اعتمادًا على الحديث الشريف.. دب الفصام النكد بين البيت والمجتمع بما يشتملان عليه من منكرات، وبيننا بما نحمله من مقت وكره دفع بعضنا لتحين الفرص المناسبة لإزالة مظاهر هذا الدنس.. فعندما أراد أبي نزولًا عند رغبة إخوتي وضغطهم اقتناء (التلفاز) ضممت صوتي إلى صوت جدتي بالشجب والتنديد، وعلى الرغم من أن الأمور كانت تُرسم بشيء من السرية التامة؛ مخافة أن يتناهى الخبر إليها فترحل مضطرة كما هددت إلى بيت عمي، الأمر الذي لا أطيقه للعلاقة الروحية الخاصة التي كانت تربطني بها، وعلى الرغم من تهريبه إلى المنزل خفية..

كنت أقف إلى جانبها محرضًا إياها على مقاومة هذه الرغبة؛ علها أن تثني والدي عن قراره.. حاول أبي أن يشرح أسبابه تارة، ويبدد مخاوفها من ارتكاب المعصية جراء اجتلاب (إبليس) –كما تسميه جدتي– إلى المنزل، لم تكن المقاومة كافية.. غيابي الطويل عن المنزل، وارتماء جدتي الدائم على سجادتها حسم المعركة وتحققت مآرب إخوتي في الحصول على هذا الساحر الصغير، فتبدد حنقهم عليَّ، وتوقف نفير

المؤامرة، فكان موقفًا مخيبا تمامًا للآمال في انتشالهم من فتنة (إبليس الصغير).. حل ضيفًا خفيف الدم على إخوتي وثقيلًا عليَّ.. انزوت جدتي هاربة إلى آخر غرفة قصية من المنزل تمارس طقوسها التعبدية، وتذكر الله، لا تغادرها إلا التماسًا لحاجاتها الخاصة.. كانت ركني الذي ألتجئ إليه.. أتجه صوبها مباشرة.. أقبل رأسها وأجلس بين يديها كالعادة.. أقرأ لها ما تود سماعه.

لم يكن منزلنا الوحيد الذي تلبسته روح الشيطان؛ بل هناك دور ومنازل كثيرة تفشى فيها إبليس الصغير، وغيَّر من معالم الحي وعادات الناس الشيء الكثير.. في البدء كانت بيوتًا معدودة تحتضن (روح الشيطان أو إبليس الصغير) وعلى استحياء أو خوف وريبة يختلف إليها الناس بحجة التجمع والتزاور في أوقات مختلفة من النهار والليل، إمَّا مسمرين أمامه وإمَّا مستمعين إلى بعضهم عن حكايات مشبعة بالخيال مأخوذة من أحداث المسلسلات؛ تاركين الصمت يخيم على أركان الشارع، كان الرفيق الجديد الذي منح الناس تعلقًا آخر بوجه من وجوه الحياة وصخبها.

الحرب أصبحت مكشوفة وموجهة.. بدأ يتحرك داخلنا هم يعترينا تحت نير احتلال الشيطان الصغير لعقول الناس وقلوبهم.. هنا انطلقت

شرارة أهمية التغيير في مجتمع يستبد به الفسق والمجون مع الوافد الجديد، وروح الشيطان القابعة على كواهل الناس مذ ساعات الصباح الغضة.. كنت أبحث عن وسيلة مجابهة، بحثت عن أقرب صديق يعتلج الهم نفسه، وبعيدًا عن إدارة الشيخ حمود؛ لتيقني أنه لن يبارك أية خطوة نوعية تشوش على نشاطات الجماعة، فلن يسمح باقتحام مغامرة من هذا النوع.. نثرت بين يدي أحمد همي، فكنت كمن ينكأ جرحًا رطبًا وسرعان ما تدفق نازفًا.

قال لي والهم يصبغ نبرات صوته بحرارة تفوح بها أنفاسه:

– قلت لوالدي: إنني لن أقف مكتوف الأيدي، سأجابه هذه اللعنة، ولكن والدي صمَّ أذنيه ولم يكترث، ظل إخوتي يصفقون لانتصارهم بقدوم الضيف.. أردف أحمد:

– والدي يدعي أنه يفتح نافذة على العالم.. حذرته أنه سيفتح نافذة إلى جهنم.. ذهب صوتي تسفه الرياح ولم يتورع إخوتي من محاولات إيذائي بصوته المتشنج الصاخب.

سألته، محاولًا أن أرقأ حزنه الواكف:

– ماذا فعلت؟

– عندما أعود إلى البيت أحاول تجنب أي موقف يصدمني بهم؛ على الرغم من محاولاتهم التحرش بي ورفع صوته.. أذهب إلى غرفتي أو أنكب على دروسي، وعندما تعوزني الحيلة أضع أكبر وسادة فوق رأسي أو أحشو أذنيَّ بنتافات قطن، ولكن بلا جدوى.

– الهاجس الذي ينتابني الآن هو ضرورة إخراس هذا المنكر.. توصلت إلى طريقة هي العلاج الناجع، وكما يُقال: آخر العلاج الكي...

تابع حديثه بانتشاء ونبرة المؤامرة تتسرب بين شفتيه: لا يذهبن بك الظن أنني سأحرقه، بل هناك ما هو أسلم وآمن.

أدركت أنه سيمضي على مشارف حل ينتزع فتيل الألم الذي يحتل أجزاءً من أوردتي.. لا مناص أنه ماضٍ في تنفيذ فكرته المتمردة.

قال: زجاجة عطر يتم سكبها في قعر التلفاز كافية.

سألته متطلعًا: كيف؟

فكر قليلًا وكأنه يبحث عن إجابة صارمة فقال:

نعم: أولًا: يجب أن يكون الوقت مناسبًا في ساعات متأخرة من الليل بحيث لا يكتشفك أحد.. ثانيًا: ألا تترك آثارًا يُستدَل منها عليك.

وضعت يدي في يده مُتهللًا فرحًا بهذه المؤامرة الجريئة، وقال:

سأوافيك بالأخبار حالما يتم التنفيذ.

كانت الأيام تمضي سراعًا بين مد وجزر نستلهم معطياتها من روح شيخنا، منتظرًا ماذا ستسفر عنه مبادرة أحمد لتغيير المنكر.. فقد أنجز وعده وتمم حيلته، وكانت الحركة الأولى في حياة الجماعة.. تم ما كان يصبو إليه، وكانت نتيجتها أن نال عقابًا شديدًا؛ أوقعه به والده مخلفًا آثارًا داكنة وهالات حمراء وزرقاء.. ضاعت تقاسيم وجهه جراء ضرب مُبرح تلقفه على وجهه.. راعنا منظره حينما قدم ذات يوم كأنه يسحب الأرض من تحته يجتر قدميه أو ينزعهما انتزاعًا.. انطلقنا إليه نحمل أركانه المكتظة بالأوجاع، نقعده ونسوي جلسته على الرغم من ابتسامته التي لم تكد تفارقه، تتسلل من بين ركام الجراحات النازفة من شدقيه وأوجاع تتنفس بها أضلاعه.. كان السؤال الوحيد الذي أمطرناه به والفزع يستبد بنا إلى أبعد ما تصله الرعشات؛ خوفًا عليه وحزنًا على ما آل إليه كيانه المحطم.. لم نكن نتصور أن جسدًا ناحلًا كجسد أحمد يقوى على مجرد

الحركة بعد ذلك العقاب المبرح لم يترك بقعة سليمة من جسده إلا بعلامة تنبض بالألم.

– ما الذي حدث؟

وآخر يسأل:

– هل تريد أن ننقلك إلى المستشفى؟

صوت آخر:

– يجب أن نحمله إلى المستشفى.

أشار بيده الخائرة:

– لا، لا.. أخذني أبي إلى المستشفى.. صرفوا لي بعض المسكنات.. الحمد لله، ليس ثمة كسر عدا الجروح والندوب.

بات السؤال الذي يحلق في أذهاننا كحمامة تطير في ظلام دامس!

– ماذا حدث؟

أفسحوا له، اتركوه يلتقط أنفاسه.

صاح الشيخ بنا ونحن نلتف حوله على شكل نصف دائرة، فهدأت أنفاسه وامتلأت رئتاه بالهواء المضمخ برائحة الدم.. انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة وأرسل بصره إليَّ كعلامة انتصار، فهمت منها مباشرة المغزى الذي يرمي إليه، فتقافزت بين شفتي ضحكة لم أكد أخفيها عن الجميع.

نظر الشيخ بعينيه الفاحصتين إلى ابتهاجي مخمنًا أن ثمة ما يتوارى خلف هذه الكدمات.. كانت بوادر الإثارة بادية على محيا الشيخ عندما سند ظهره على حائط قبالتي وراح يحلق بعينيه كرة أخرى مستجديًا إشارات أثيرية أرسلها تنم عن فحوى السر الكامن بين جراحات أحمد وشفتيه المتورمتين.. كانت أسلوبًا معتمدًا للتراسل بيننا.

أوحيت إليه بإيماءة مختزلة فهم منها تقريبًا أن ثمة مؤامرة.. لم تقع في نفسه موقعًا حسنًا؛ بل زم شفتيه وأفاض على وجهه ولحيته الكثة بمسحة تعبر عن رهق يعتصره.. لم يسعفني الموقف الذي لم أكن أُحسد عليه.. لملمت شعث أي عبارة ستسقط كحبة خرز من خيط مسبحة قديمة ستفرط في سياقها بقية الخرز إلى النهاية.. قلت هامسًا في أذن الشيخ الذي أشاح بوجهه المسكون حزنًا قبالة الجهة الأخرى:

– لقد حظي أحمد بشرف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأقرب الناس إليه.

بكلمة مبتورة واهية قال الشيخ:

لنتحدث –إن شاء الله– فيما بعد.

جرأة أحمد حلت من أعناقنا قيودًا كانت تحد من تحركاتنا.. أحسسنا بعظم المسئولية وأهميتها، فلا ترانا إلا منقادين متقمصين دور المواجهة.. زودتنا هذه التجربة بزخمها الخاص، جعلنا نتحين فرصًا مماثلة؛ شريطة أن تحمل الزخم نفسه والتجربة ذاتها.. في ظل هذا الوضع الجديد والطارئ كان من الأهمية بمكان إعادة تشكيل خارطة الجماعة، وإعادة تقسيمهم وتوزيع أدوارهم وفق منظومة مغايرة لإرادة الشيخ في تجنيبنا مغبة المواجهات المباشرة، فلا تزال صورة أحمد منذ يومئذ عالقة بين عينيه، فلم يكن الأمر اختيارًا، بل إلزامًا.. كنت أتمنى أن أشارك أحمد مهماته.. أدرك الشيخ بحسه القيادي أننا لا يجب أن نشترك في مجموعة واحدة.. كانت خيبة أمل كبيرة ظللت أتجرعها أيامًا.. قادني حدسي أن ثمة أعمالًا محاطة بشيء من السرية والتكتم بين فريق أحمد.. لا أدري بماذا كانوا يفكرون أو يخططون.. قادني فضولي مرة لمحاولة التنصت على بعض اجتماعاتهم، سمعت أشياء من قبيل الانتشار في الأسواق.. تغيير

بعض المنكرات.. التغلغل بين العمالة الوافدة.. مراقبة سكنهم والأعمال التي يقومون بها.. أستمع إلى أحاديثهم الهامسة أحيانًا والضاجة أحيانًا أخرى على الرغم من أنني لم أكن بمنجاة من عين الرقيب.. شاهدني أرخي سمعي إلى ما يدور في الداخل.. سألني ببراءة مصطنعة: هل تنتظر أحدًا؟ فأجبته ببراءة متعمدة أيضًا: لا، لا! وانطلقت مهرولًا إلى حيث كنت، وفي ذهني تدور أشياء كثيرة أهمها: أمنيتي التي ظلت تراودني بالانتساب إلى هذه الجماعة، والأمر الآخر: ماذا سيحدث بعد ذلك الموقف المحرج.. كنت موقنًا أنه لن تترك لأدراج الرياح، ولن أنفذ من عقاب الشيخ.. كان من عادات الجماعة أنها لا تعبر عن مواقفها بردود أفعال سريعة؛ بل تنتظر إلى أن تهدأ الأنفس، خصوصًا فيما يتعلق بأفراد الجماعة؛ فالأمور ببساطة تعالَج عادة بتأنٍّ وتخطيط وصبر؛ لذلك أدركت أنني لن أنجو من عقاب الشيخ، ولكن متى؟ وكيف؟ اليوم أو ربما غدًا أو بعد غد.. والعقاب هو الحرمان وشيء من التكليفات المرهقة.. كنت أعلم أنني كلما بادرت بتنفيذ هذه الجزاءات العقابية تقلصت مدة العقاب، والتقصير يزيدها ربما إلى أيام قادمة.. أتاحت الظروف فرصة الاختلاء بأحمد.. عبرت له عن رغبتي في الالتحاق بأعمالهم، فقال لي:

– أخاف أن ترهقك.

قلت:

لا عليك.. سأنفذ كل متطلباتكم.

قال بتردد:

ولكن بشرط ألا تخبر الشيخ حمود، وأن تكتم كل ما نقوم به عن الآخرين.

هذه الإجابة تحديدًا أعادت إليَّ حماستي مداعبة عنفوان الشباب في عروقي، ومن شدة الفرحة أخذت ألهج بالدعاء له وبالأيمان المغلظة أن ألتزم بجميع ما أملاه من شروط.. ومن تلك اللحظة أصبحت ملازمًا لأحمد في أوقات لا يرانا فيها الآخرون خوفًا من أن ينتابهم شك، فنُحرم شرف العمل الشاق الذي كنت لا أزال أجهل تفاصيله، إلى أن أخذني ذات يوم إلى مقر هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يكن عندي سابق معرفة بما يدور داخل أروقة الهيئة إلا ما يقومون به من دفع الناس بالقوة إلى الولوج في المساجد لتأدية الصلوات.. دخلنا مقر الهيئة فاستقبلنا رئيسها والملتفون حوله بالسلام والترحيب بعفوية متناهية.. مما لا يدع مجالًا للشك أن ثمة علاقة وطيدة تلغي الحواجز بينهم وبين أحمد.. قدمني إليهم مشيرًا بعينه بما يُفهم أن ثمة دورًا ما يمكن أن أقوم به

معهم.. وحينما أخذنا الحديث اطمأنوا لي أكثر مندمجين في وقت قصير جدًّا في تفاصيل ما يمكن القيام به، عندما هممنا بالانصراف طلب مني أن آتي إلى المركز قبيل غروب الشمس لا أكثر، فثمة عمل يجب إنجازه.. في البداية كانت الأعمال الموكلة لي لا تتجاوز ترتيب الملفات المكركبة والأوراق المتناثرة هنا وهناك، ولم أدرك أهميتها إلى أن علمت أنها محاضر مسجلة ضد أناس لآثام اقترفوها..

كنت أشاهدهم يأتون إلى الرئيس يسألهم ولا يطلب منهم سوى إجابات محددة، ثم يساقون بعدها إلى غرفة في الجهة الخلفية من المبنى، ولا أراهم إلا حينما يؤتى بهم لتوقيع التعهدات بعدم اقتراف المنكر ثانية، وأحيانًا يقادون إلى أماكن لا أعرفها.. كنت أسأل أحمد عن مصيرهم فيجيبني باختصار قائلًا:

– ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾.

فألتزم الصمت وأكتفي بالمشاهدة، حتى طلب مني ذات يوم أن أخرج مع مجموعة للتنويه بدخول وقت صلاة المغرب.. كانت الشمس تلفظ أنفاسها الأخيرة.. انطلقنا إلى حيث لا أعلم.. وما إن رأى السائق مجموعة من الشباب يتقافزون بنشاط حول كرة القدم ويرتمون بأقدامهم عليها.. يتقاسمونها أحيانًا ويستأثرون بها أحيانًا أخرى، ولم يدر في خلدهم

أن لعنة ستحل بهم تيك الساعة المشؤومة.. فما إن رآهم حتى أطبق عليهم.. لاذ بعضهم بالفرار وسقط آخرون في الفخ.. كانت مطاردة عصابات مشؤومة ومخيفة في آنٍ.. بقيت متيبسًا لم تسعفني قواي على الحركة تائهًا لا أدري ما الذي يجري.. أقلب بصري في عملية انقضاض لأول مرة أشاهدها، وبلحظات فُتحت أبوب السيارة الخلفية وقذف في قعرها عدد من الشباب بعنف.. يتسربل عرقهم، وتفوح رائحته النفاذة، مسلوبي الإرادة، فاقدي البصيرة..

حاولت أن أبتلع ريقي تبديدًا لحنقي وامتعاضي.. قلت في نفسي أي ورطة ساقني إليها أحمد، الله يهديه.. لم أكن أتصور للحظة أن أقترف مثل هذا الفعل.. كنت أختلس إليهم النظرات.. تلاشت أنفاسهم رويدًا رويدًا وتبلدت أحاسيسهم.. أصبحوا كقشة تعبث بها الريح إلى أن وصلنا إلى المركز، فُتحت الأبواب وأُنزل الشباب مقتادين في خضوع تام.. بدأت مراسيم الأوامر من سلطة الشيخ العليا، كان كلبوة تحرس جراءها.. ظلت عيناي تحلق في تفاصيله الواجمة تتجلى أمامي مسرحية مصطنعة كي يبث الرعب في قلوب عاثري الحظ، وفي إيماءة يُفهم منها أخذهم إلى حيث تؤدى صلاة المغرب تحت حراسة مشددة، انطلقوا يحفهم الحرس من كل جانب.. إلى تلك اللحظة لم أكن أضمرت كرهي للمدعو (أبو حذيفة)، عرفته عبوسًا متذمرًا طوال بقائه معنا، والويل لمن

يقع بين يديه.. سمعته مرارًا يردد قائلًا: (العصا تصحي الرأس).. في دقائق محسوبة وبعد أن قُضيت الصلاة أُخذوا إلى حيث يمارس الشيخ هوايته، حيث أوصدت عليهم الأبواب، لتبدأ احتفالية الشيخ وكما جرت العادة يدعون للتحقيق وحدانًا.. فتح المحضر.. بدأ السؤال الاعتيادي: لماذا لم تصلِّ؟

الجواب: لم يكن وقت الصلاة قد حان.

سؤال: قصدك صلاة العشاء؟

جواب: لا قصدي صلاة المغرب.

سؤال: كم عدد ركعات المغرب؟ أحس الشاب المسكين بالورطة والحرج، صار يتلكأ ويتباطأ خشية الوقوع في الخطأ، يعدها سريعًا يحرك أصابعه.. الناتج ست ركعات.

يضحك الريس هازئًا: ركعات المغرب ست! أين تعلمت؟

– أنا طالب في المرحلة الثانوية.

– ولا تعرف عدد ركعات المغرب؟!

– لا أنا أخطأت أقصد عدد سجدات صلات المغرب.

ولكي يحكم قبضته جيدًا من الضحية سأله:

هل تعرف أركان الصلاة؟

أحس الشاب بالمطب الذي نصبه له الشيخ.. حاول استجداء ذاكرته، ولكن هيهات.. كان الصمت وحده حليفه.

علق الشيخ قائلًا: لو سألتك عن آخر أغنية لطلال مداح لأجبتني على الفور، ولكن ستُشفى –إن شاء الله–.. أشار لأحدهم.. قفز من مكانه.. الكرة وقعت في مرماه الصحيح، واقتيد الشاب إلى إحدى الغرف، خلتها الغرفة نفسها المخصصة للسجن، ولكي أتبين مصير هذا المسكين تبعتهما إلى أن ولجا غرفة مختلفة أوصد بابها بإحكام.. سمعت أصوات مشادة كلامية أسفرت عن ضرب مبرح تلقاه الشاب من عصًا غليظة انهالت فوق ظهره، والشاب يصرخ بصوت يئن ويتوجع.. عدت أدراجي كاظمًا حنقي..

دخلت مكتب الريس وفي حضرته أحد المقبوض عليهم، لكنه في هذه المرة ساكن الفؤاد مبتهج الوجه، وهو يحادثه بلطف لم يحظ به من يأكل الآن عددًا محترمًا من العُصِيّ الموجعة فوق ظهره.. أما الآخر فيجلس قريبًا من الريس بحفاوة أثارت استغرابي وغيظي معًا؛ لا أسئلة

محرجة ولا مطبات مهلكة، بل كان حديث لين ووجه ينبض بالاستهلال والتبسط، ثم نهض الريس مودعًا إياه طالبًا منه بألا يبقى أوقات الصلوات في الأماكن العامة، مع تأكيده على وصيته له المتمثلة بأهمية حمل أمانة السلام لوالده.. بتقادم الأيام صارت المستعمرات الصغيرة التي نحملها بين جوانحنا تمثل النزوة الجامحة للالتقاط والانقضاض على كل أدوات الفسق والفجور تحدد ملامحها أدوات أخرى من معين الشيخ الفكري، على الرغم من محاولاته للابتعاد عن الانجراف في سياقات التغيير بالقوة، كان ينظر إلينا في عتاب واستجداء أن نضغط على صدورنا النافرة برفض واستعداء مطلقين، خصوصًا بعد حادثة أحمد، وأن نكبح جنوحنا إلى مقارعة أي مظاهر لا تنم أو تعبر عن رؤية إسلامية تحدد إطارًا لمنهج السلف الصالح، ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مقتفين أثره في محاربة مظاهر الشرك والبدع والخرافات.. وبما أن أحمد المحرض لاستمالة إرادة التغيير بالقوة والتنحي عن أسلوب الشيخ المهادن؛ غدت الأيام المتوترة أكثر إمعانًا في صيد الموبقات، حيث تمتد غارتنا الليلية في كثير من الأحيان على مواقع مشبوهة لقاطني الأحياء الحديثة من العمالة الأجنبية.

وكانت عين الرقيب قد انغرست في رؤوسنا، وشهوة التغيير بالجهد والأيدي منذ بدء التعاون مع هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

الذي وجدوا فينا حمية دينية شديدة نحو اجتثاث المنكر باليد، تصب في صلب ما يبتغون تحقيقه لفرض هيبتهم على المجتمع.. كنا نختبئ مندسين في صميم حياة الناس، للتعرف إلى مكامن العفن، خصوصًا بين الوافدين، وتعقب تحركاتهم.. ومع ما نواجهه من عنت في سبيل ذلك، إلا أننا كنا نستطعم حلاوة العمل الاستخباري، بكل ما تعني هذه الكلمة من أبعاد دقيقة، وقد امتدت أيادي النشاط المحموم بهمِّ التغيير إلى أحياء متفرقة من الرياض، فلم تعد من اختصاص الجهات المعنية، أو هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مدفوعين بمتعة الكشف عن بؤر تعاطي الخمور وتوزيعها بين العمالة الأجنبية.. تنطلق جولاتنا الليلية ساعة يستتب الناس في مراقدهم، نرسل الأعين لاجتلاء الطرقات وإرسال الإشارات الضوئية عبر إضاءات محمولة، نتسلل بخطوات وئيدة ملتصقين بالجدران في مباراة لمصادر الصوت والجلبة، بغية الاستماع لما يدور في رحم البيوت والمنازل بما يثير الريبة والشكوك.. وعند سماع أي صوت نشاز يرتمي كقطعة ملح تذوب في ماء، تبتل أرواحنا بمذاق للمتعة ونكهة للفرح.. نشرع بتحليل بياناتها سريعًا مطوقين أنفاسنا الواجفة، لتطفق آذاننا.. تتسلق آذاننا متجاوزة خطوط الصوت القريب إلى الأصوات الأبعد، وما إن تتأكد هذه الشكوك حتى نبدأ بالسباحة في حلك الظلمة؛ مرتدين عباءة الليل غير آبهين لشراذم الكلاب الضالة

التي تمنحنا فرصة للحركة دون أن يشعر بنا أحد للركض والتنفس والنداء بصوت مسموع مختلط بنباحها..

وإذا ما وضعت علامات فارقة مميزة للأصوات الهشة، توضع الخطة للزحف فوق الجدران، والارتماء فوق السطوح لاختلاس النظر عن قرب بغية التأكد تمامًا قبل الانقضاض.. كان تصميم المنازل بشكلها الحديث المخصصة لسكن الأجانب والمساحات الفاصلة بينها، وبعدها عن قلب المدينة يمنحنا فرصة كاملة للسيطرة على الموقف، وقلما نعود دون تحقيق صيد وافر بما يعزز قناعتنا بقدرتنا وأهميتنا والتعامل مع المتغيرات.. لم تكن تمثل اللغة عائقًا يحد من قدرتنا على التواصل والتخاطب معهم؛ فقد كان الذعر المفاجئ الذي يستبد بهم كافيًا لتحديد هوية الموقف كاملًا، فيقعون في فخ لا يُحسدون عليه.. يُخيل إلى أكثرهم أن حكمًا بالإعدام سيصدر عليهم مع اقتناعهم أن ثمة عقابًا ما لا مناص سيطالهم.. أحدهم هوى على الأرض يبكي يمرغ رأسه بالتراب مشيرًا إلى رقبته وهو يقبل أقدامنا متوسلًا أن نطلق سراحه.. كانت رائحته تكتم الأنفاس وتزكم الأنوف من كثرة ما تجرعه من الخمر.. اعتدنا على كثير من هذه المواقف، فلم تكن تحرك مشاعر الرأفة، مما عزز أيضًا ثقتنا بأهدافنا وبمسؤولية متابعة الفسق والمعاصي أينما كانت.. في ظلها يشمر أحمد عن كوامنه ويرخي ذوائب أفكاره بانتصار ويقول: يجب ألا

نستمري أهواءنا للصفح عن هؤلاء الكلاب، بعدما تمت السيطرة الكاملة على منافذ الأهواء من أبوابها المتعددة، نتقلب في شبق وشوق وشهوة من نوع آخر، يستعدي الرذيلة ويصافح أيادي التعبير عن أفكارنا المشتملة على إرادة التغيير بالقوة، في إطار يُحدد معالم سلوكنا ومعاملاتنا، في انسياق تام مع ما نؤمن به ونسعى جاهدين لتطبيقه داخل المجتمع.. نما هذا الإدراك عندما تحقق لحكومة الليل الخفية اختراق حواجز الظلمة للوصول إلى منابت الشر، وعندما يحمى وطيس المعركة نلوذ بالعسس المجندين لمراقبة مفارق الطرقات الذين يقومون بالتحقيق بالحادثة وضبطها وتسليمها إلى مخافر الشرطة في أنحاء متفرقة من المدينة.. كنت أذهب محفَّزًا بروح أخرى غير تلك التي يحملها الآخرون.. روح يسكنها حب اكتشاف الأرض التي تصافحنا في النهار وتدير وجهها في الليل؛ لتبيت مدينة تعبث بها أيادٍ مختلفة، على الرغم من هوس أحمد الليلي باقتفاء آثار البعض كما كان يحلو له التعبير عنه.

كنت أرمي نفسي في مساجلة طويلة، تفيض بها مسامات الوقت من ليلي العرم، المحموم بالمطاردة، الفائح بروائح مبعثرة.

# وقت للسؤال

صوتي يسبقني لاهثًا.. انظر إلى وجه مدينتك الكافرة بظلامها المؤمنة الصالحة في نهارها، القاتمة في عريها، المشرقة في حللها هذه التي تسكنني بما هو أكثر من مسكنتها:

– أليست جزءًا من وجهك المنضود؟! أنا لا أبحث عن وجه يستتر خلف كثبان من الأسئلة وأسوار مشوكة من الحيرة، ابحث عن إجابة واحدة لا تمتد خلفها يد غليظة، لتشق وجهي بصفعة رعناء.. كل ليل نطارد أشلاءً متناثرة من حقيقة وجودنا.. سكون يبعثنا كخفافيش تنهش، وعقارب تحقن سمها في مسامات الغافلين.. ثم ومض إشارات وبقايا ضوء ينسكب من حيرة وضياع، يهربها لنا الماضي فنتعقبها بحجارة

من سجيل اللا مبالاة المفتعلة.. من يجرفنا عنوة الى جوف هذه المنازل الشاردة في بقعة نائية عن المدينة.. حتمًا هو الخوف نفسه الذي يتعقبنا صغارًا.

قررت أن أولي هاربًا أو نائيًا بنفسي عن هذه الأجواء المسكونة بشهوة القمع دون وجه حق أو محاكمة عادلة.. لم أشأ أن أخبر أحمد بقراري الذي عزمت على المضي فيه بعودتي إلى ساعات الشيخ حمود.. الذي لم أره قط يغلظ على أحد في توجيه؛ ناهيك بالضرب وخلافه.. عدت إلى الجماعة مضمخًا بحنين إلى حياة مسالمة.. حاول الشيخ تعليمنا مفرداتها، يوم عدت قابلني الشيخ بابتسامة بيضاء مشرقة، وكعادته لا يبدد وقته بالعتاب، المهم أني عدت.. كل ما تفوه به عبارات لا تخلو من المزاح:

–أشوف ما عليك حرارة.

ملوحًا بغياب الأيام المنصرمة بلا مبرر.. حتمًا لم يكن بسبب المرض.

# للقلب رسالة مختلفة

تمر الأيام سراعًا بلا ملل أو نصب، مبتهجين بما نحن بصدده، وبرسالتنا التي تصفنا مميزين بين فئات المجتمع.. حياتنا مملوءة بالنشاط الذي لم يكن يدع للممل فرصة أن يخاتلنا.. يمضي اليوم في برنامج نقوم بإعداده، وقد نفاجأ أحيانًا بتدخلات الشيخ في تعديله.. هذا التغيير يمنحنا تجربة جديدة، ونكهة مختلفة، نبيت منذ ساعاتنا الأولى وإلى قبيل منتصف الليل في نشاط دائب، فلم تكن مشكلة المواصلات تمثل عائقًا أمامنا؛ فقد أوعز لكل واحد يمتلك سيارة مسؤولية نقل مجموعة لا يتجاوزون عادة أربعة شباب في جميع تنقلاتهم، فبعدما أسقطنا الأخ أحمد الذي ابتلعته دروب وعرة وغامضة، آثر الشيخ عدم الكشف عنها

فنسيناه على مضض وتجشم للذاكرة، أمسينا ثلاثة أنا وخالد وإبراهيم.. انخرطت مباشرة في تنفيذ ما أوكل إليَّ من مهام؛ تركزت في تنظيم أعمال الجماعة، وتصميم جدول زمني محدد للنشاطات وتوزيعها على رؤساء المجموعات، فكل جماعة لها أدوارها المحددة تقترب وتبتعد من المركز والعصب الإداري بقيادة الشيخ، حسب الظروف الزمانية المتمثلة في بداية الالتحاق بالجماعة والأنشطة المتنوعة التي قام بها ومداومته عليها بالمنهج المرسوم.. والمكانية، المتمثلة بقُربه وبُعده عن مركز الاحتكاك بالجماعة؛ لضمان سهولة تنقله معهم والوصول إليه، إذ كل مجموعة مكونة من أربعة يلتحقون بشخص يكون بمثابة المسؤول الموجه والمسؤول عن تنقلاتهم.

عبر مسيرتنا استطاع خالد أن يتبوأ مكانًا متقدمًا بين صفوفنا؛ حيث أخذ فرصته الكاملة بألقه الخاص وهدوئه وتريثه دائمًا عند مشاركة أو اتخاذ قرار.. كان منظمًا بما يجلب على التقدير والانقياد له بتسليم مطلق؛ لذلك وثق فيه الشيخ وأسند إليه إدارة أ نشطة الجماعة إلى جانب مهماته الأخرى، ولدماثة أخلاقه وطيب معشره؛ أوكل إليه قيادة الشباب الصغار المنضمين حديثًا إلى الجماعة، الذين يجدون فيه مباشرة حميمية أخوية صافية ليتخذوه بمثابة الأخ الأكبر الذي يُستشار في كل الأمور حتى أعوصها وبلا تردد.. تطيب مجالسته وتروق

للكثيرين.. كانت كلما تشرق شمس يوم أو تغرب، ترهقنا الكلمات الجياشة بحرارة أنفاسنا المفعمة بأمل في يوم نؤمن به وننتظره، حتمًا سينبعث على ألوية الانتصار التي نعد لها وسنحملها فوق كواهلنا.. لنكون قادة الفتح المبين، لنعيد مجد خالد بن الوليدة وسعد وأبي عبيدة وصلاح الدين وكل القادة الفاتحين.. ذلك اليوم نستشعره ولا نمني أنفسنا به، لأننا نصنع أرضه في واقعنا نحن، واليوم الذي نشبك بين أواصر شباب الأمة ونعدهم للمواجهة، سيكون ذلك اليوم قريبًا جدًّا.. ذات مرة حرك طيور الشؤم في صدورنا خوف جراء تخلف خالد عن الالتحاق بنا، وطال غيابه أيامًا بلا سبب واضح.. سألنا عنه الشيخ وكانت الإجابة ترتد بسؤال آخر.. انتابنا خوف وحزن وكأن شيئًا ما حدث له.. أثمر قلقنا عن أسئلة وشكوك، فمن عادات الشيخ في مثل هذه الظروف اللجوء للصمت، والتماس الأعذار إلى أن يتبين شيء، فكنت في كل مرة ألح عليه بالسماح لي بالذهاب، للسؤال عنه وتقصي أخباره ومحاولة إحضاره.. استأذنته أكثر من مرة متوخيًا قبوله فيأبى، لم أمل أو أفقد الأمل حتى وافق أخيرًا؛ ولأنه كان يفضل دائمًا ألا نعمل فُرادى، فقد أوعز لإبراهيم أن يرافقني، انطلقنا بالسيارة حيث يقطن..

قطعنا الطريق بالحديث والتخمينات الحائلة دون مجيئه.. كان دائمًا يُعاني معاناة مريرة من والده الذي لم يكن يضمر لنا أدنى حب أو مودة

أو على الأقل يقابلنا باحترام أو يسمح لنا بمبادرته السؤال.. كان فظًّا معنا غليظًا.. ما إن يرانا قادمين لأخذ خالد حتى يوصد الباب سريعًا في وجوهنا ولعناته تتطاير مع زبد فمه وشيء من البصاق.. ونستذكر أننا نحن القابضين على الجمر لا يجب أن ينتابنا شعور بالغضب أو الانتقام، بل نعفو ونصفح إلى أن يأتي يومنا الموعود.. كنا نتجنب حتى مقابلته قدر الإمكان، هذا يريحنا كثيرًا، لكنه في هذه المرة بالذات تعمد أن يخرج إلينا عابس الوجه، وقد بدت كل تعاريج الماضي بين تضاريس وجهه كأنها تلعننا.. واستقبلنا بسؤاله النكد: ماذا تريدون؟ وقبل أن نبدأه بالسلام لتخفيف حدة الوجوم المخيم على صفحة وجهه، انطلق مرغيًا ومزبدًا: (غير موجود، وإياكم ومعاودة طرق هذا الباب مرة أخرى، أو أن أراكم تدخلون هذا الشارع).. بدا لنا هذا التوجيه أشبه ما يكون بالأمر الحازم وعلينا تنفيذه فورًا.. وبهدوء كعادتنا انسحبنا دون التركيز جيدًا فيما يقول، بل كان شغلنا الذي اجتزأ المساحة الكبيرة من تفكيرنا هو صاحبنا، لماذا في هذه المرة بالذات؟ ظننا أن أمرًا قد أصابه.. انتقلت بنا السيارة عبر الأزقة والأحياء بصمت بغيض.. ماذا عسانا أن نفعل؟ هل نخبر الشيخ أو ننتظر ونعاود طرق الباب، ولكن في غير وقت من هذا اليوم؟ موقف غريب وتصرف أغرب! اقترحت ألا نبتعد كثيرًا عن المنزل لعلنا نظفر بفرصة مناسبة، يخرج والده في شأن من شؤونه

فنطرق الباب رجاء أن يفتح أ ويخرج بنفسه.. بدأ القلق يساورنا.. جاستنا أفكار مريعة: أن مكروهًا أصابه.. حاولنا طرد هذه الهواجس غير الباعثة على تشتت الذهن.. الليلة الفائتة كان معنا رافلًا بلباس الصحة، كما أنه لو كان أصابه مكروه فسنجد من يخبرنا بذلك، كعادتنا دائمًا في التعامل في مثل هذه الظروف، فمن أبسط قواعد الجماعة ألا نواري أي شيء يطرأ على حياتنا، من أهمها المرض على وجه الخصوص؛ لما يلاقيه المريض من عناية خاصة وملازمة كفيلة بتعجيل شفائه، فلا ندعه حتى يُشفى وينهض معافًى في جوٍّ مشحون بالنكات والتعليقات ومسامرة تجلب إليه السعادة.. حالة خالد وفي هذه المرة بالذات كانت مفاجأة تثير علامات استغراب.. تسللت إلينا أصابع اليأس فقررنا العودة.. اقترحت على إبراهيم أن نبيت قريبًا من الشارع الغارق بالمارة والأطفال الذين تغص بهم مفترقات الأزقة والأحياء؛ ينسلون من حيث لا ندري.. بما يخفي تربصاتنا له عن عين والده.. مكثنا ساعات طويلة إلى أن قدم أحد إخوته يتهادى بين الجموع المحتشدة هنا وهناك، فكانت سعادتنا غامرة حررتنا من هواجس رافقتنا طول الطريق.. انطلقنا إليه يحفنا أمل في العثور على إجابة تضع حدًّا لقلقنا.. كان ثمة سؤال واحد ظل معلقًا بين ألسنتنا هو خالد.. وكم كان استغرابه في توجيه السؤال بأنفاسٍ لاهثة ولهفة تتقطر شوقًا وانتظارًا لإجاباته.. أحسسنا بارتباكه

وخوفه من أنه قد حدث مكروه لأخيه فأجابنا: أعرف أنه في المنزل يوم خرجت على أحسن حال، أما الآن فأنتم أعلم.. كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف.. ولج البيت غير عابئ بما نتوجسه من مخاوف.. وقبيل أن تلملم الشمس خيوطها الذهبية وتلفظ أنفاسها الأخيرة تاركة مسافات الكون لخطوات الليل القادم بعنفوان كنا قد رحلنا.. انطلقنا عائدين في وجوم وخيبة كبيرة.. أحسست بفراغ يجتاحني والأسئلة الصعبة التي لا تسد رمق الإجابات المتلهفة.. بحثت في أجندتي عن بعض حكاياتنا من ساعات يومنا النازف بالشجا لا تنقطع وتيرته عادة إلا مع صوت المؤذن المعلق دائمًا في أرواحنا، كانت أنفاسنا مترعة بالحسرة وأرواحنا تتقطر بالألم؛ مجسدة همًّا هو أكبر من أعمارنا، في كلمات أثيرية ممغنطة بأحوال (الأمة) نُقشت هذه الكلمة في أرواحنا، لا نستطيع زحزحتها وكأنها شاهد قبوري نحفه بأجمل العبارات التي تتقطع حسرة وألمًا من واقع الأمة، فتزيح أمامنا حواجز المكان والزمان، وتضعنا على حافات الكون، ندير دفته مثل ربان سفينة، ومن حولهم البحارة يزفونها إلى آفاق مجهولة.. هناك جزيرة خضراء نضرة تتراءى بين أعينهم، ولكن أبدًا لا يصلونها..

كان خالد يردد دائمًا عبارات مثل (هموم الأمة.. أحوال الأمة).. كلما استمعت إليه ازددت تحرقًا على ما آلت إليه أحوال الأمة، على

الرغم من أنني تشربت هم الأمة التي لا تعني لي أكثر من الحركة في إطار الجماعة.. هذه الأشياء وأشياء أخرى ربطتني بخالد ودفعتني للبحث وراء سر انقطاعه المفاجئ.. لم يخالجني شك للحظة أنه طريح الفراش من مرض ألمَّ به، فلم يكن المرض عائقًا أمامنا للتواصل والالتقاء حتى ولو حبوًا.. بحثت عن نافذة تصلني به، فلم أجد بدًّا من الذهاب إليه مشيًّا على الأقدام على الرغم من المسافة الطويلة التي تفصلني عنه، وعلى الرغم من الشك المسيطر عليَّ في عدم تمكني من مقابلته.. عندما حطت بي أقدامي المنهكة من عناء المشوار الطويل، كان الوقت بعد صلاة المغرب أي بين العشاءين.. وقفت متسمرًا أمام البقالة في ركن الشارع وعيناي لا تتزحزحان ترقبان باب المنزل؛ لعله يخرج.. صرت أذرع الشارع.. حيث الليل يلملم أصوات الحي ويبث رائحة السكون.. يسقط ستار الأغبرة وتحلق أبخرة المستنقعات الآسنة.. تسرب آخر رمق من صدري وخارت قوى الآمال منذ أن قررنا الذهاب إليه؛ لكن القدر يواري ما ليس في الحسبان! حدث ما كنت أنتظره! خرج والده وركب السيارة.. مما يعني أنه ذاهب في مشوار ربما يطول، فرصة سانحة كي أقتحم عليه الدار..

بدأت أقدامي تحملني في ارتباك وتعب.. اتجهت صوب الباب الموصد.. قرعت الجرس مرة مرتين، تفصل بينهما مسافة صمت وخوف

من عودة الأب فيقع ما لا أحب.. كانت نظراتي تجوب الشارع المظلم إلا من إضاءة ترتعش تحت وطأة الليل المخيم، وفجأة فتح الباب رويدًا رويدًا وكنت أظن أن امرأة تقبع خلفه.. أشرق وجه خالد بعينين فاحصتين، سرقت منهما غيابات الأيام الثلاثة ملامحهما التي كنت أعرفه بهما.. صعدت على عجل ممسكًا بيده أهزها بعنف.

أخذني بيدي وصمت يلفنا.. أسكنني صدر (المجلس) وذهب متذرعًا بإحضار الشاي وكأنني ألمحه يكفكف مدامعه؛ محاولًا أن يربط جأشه ثم عاد.. توخيت أني قد جئت في الساعة الحرجة وأن ثمة أمرًا ألمَّ به.. ولكي أتخطى هذه الحواجز النكدة المنصوبة بيننا بادرته بالسؤال وقبل أن يضع صينية الشاي من بين يديه الخائرتين:

أسأل الله لك العافية.. ماذا ألمَّ بك؟

أجابني وشيء يستكن في خاطره:

الحمد لله على كل حال.. حاولت أن أستثمر هذا الوقت، أن أصرفه بتوجس فيما يفيد مختزلًا كل الكلمات والعبارات.. سألته:

ما سبب انقطاعك؟ الشيخ لا يكف يسأل عنك!

ثم أردفت:

كنا مشغولين عليك.. حاولنا الاتصال بك أكثر من مرة، ولكن أنت تعرف لا أحد يجرؤ منا على الاقتراب من منزلكم.

قال بلا مبالاة:

حصل خير.

لم تكن الإجابة تملأ فراغات أسئلتي الشبقة.. أعدت عليه السؤال بصياغة مختلفة، لعلها تحرك وجومه.. ظللت أنتظر الإجابة.. فجأة انتهض ملتفًا بجسده نحو الباب ليتأكد من إحكام غلقه جيدًا.. ثم عاد وجلس متربعًا يعبث بأصابعه، مرة يعدها وأخرى يفرقعها، وأخيرًا نطق.. طلب أن يكون ما سيدور بيننا سرًّا إلى الأبد، فهو كما قال لا يتوقع أن يعود إلى صفوفنا.. سقطت كلماته في أذني كأنها صعق كهربي.

وعدته وأقسمت له أن يظل سره طي الكتمان مهما حصل.. اطمأن إلى ذلك بدأ في سرد قصته.

قال:

لقد استخدمت كل أسلحتها، وكنت في كل مرة أستبعد الشكوك التي تراودني فقد لا أكون المقصود.. لقد أقسمت أن أقاوم، فلن تثيرني أو تحرك شعرة في جسدي.. أنت تعرفني.

أجبته: نعم، نعم...

ثم أردف:

كانت تحاول الإيقاع بي بين فر وكر وتوقعت أن المدة كافية تمامًا لتملَّ من المكوث لساعات خلف بابها الموارب لعلَّ الملل واليأس يستبدان بها، فتدعني وشأني.. لكن أمرًا من ذلك لم يحدث؛ بل زادت إمعانًا.. محاولاتها لا تكف.. عرفت أنها (جواهر) بنت جارنا الذي أكن له كل احترام على الرغم من انصرافي عنهم وعن الحي ساعات طويلة.

ففي ذات مساء كان الباب موصدًا على غير عادته.. وقفت أنتظر قدومكم وأرمق الباب؛ متوقعًا كالعادة أن ينفرج ثم يترك مواربًا تنظر إليَّ من خلال الشقوق التي تملأ الباب الحديدي الصدئ! لكنه وعلى غير العادة بات موصدًا إن ما حدث بعد ذلك مختلف تمامًا، خرجت جواهر متعمدة حيث أمشي، أيقنت أني هدفها، فتقدمت بمشية مضطربة كاشفة

عن عينيها إلى المسافة الأقصر التي تفصل بيني وبينها فكشفت عن وجه تنبثق منه عينان تشعان طمأنينة وبراءة، ووجنتان قد صبغتهما حمرة الحياء، وشفتان ترتعشان بعبارات لم أفهمها وكأنها تسألني أو تلقي التحية.. ارتعدت فرائصي.. تيبست للحظات غير محسوبة.. كلماتها أغرقتني بأحاسيس ومشاعر أجهلها.. كانت حلمًا حاولت الخروج من مأزقه.. ولَّيت فارًّا إلى أقصى مسافة من البيت تبعدني عنها حاملًا تفاصيلها وملامحها التي سكنتني بلا وعي.. صعدت إلى غرفة ذات نافذة تطل على الشارع مقابلة لمنزلهم.. حاولت أن أبدد هذا المشهد.. شرعت أقرأ شيئًا مما أحفظ من القرآن.. كان خوفي ممزوجًا بمشاعر مسيطرة لم أستطع مقاومتها.. ظللت أعب من كأس ذلك المنظر الذي ظل يراودني في كل لحظة دون توقف، وفي كل مرة يتأكد فشلي.. لم أستطع ذلك اليوم الخروج؛ لأنني فعلًا أحسست بالعجز أو المرض أمام سيطرة تلك اللحظات.. ذهبت.. توضأت منتظرًا صلاة المغرب، وذهبت إلى المسجد مع الأذان قبل خروج كل المصلين إلى الصلاة.. وبينما كنت أمتطي حذائي متجهًا إلى المسجد إذ بها تفتح الباب وتقذف بورقة صغيرة وعلى عجل توصده.. زاد قلقي وخوفي.. رجفت فرائصي أحسست أن دمي النافر يغير اتجاه جريانه.. خفت أن يأتي أحد المارة فيلتقط هذه الورقة، وعلى عجل وقبل أن يتنبه إليها المارة أو أن

يصل إليها أحد دلفت مسرعًا على حذر شديد وخوف يكسوني من رأسي حتى أخمص قدمي.. التقطتها ووضعتها في جيبي الصغير.. قررت ألا أفض هذه الورقة إلا بعد الصلاة.. راودتني فكرة أن أمزقها وينتهي كل شيء والخلاص من هذا الكابوس الشيطاني اللعين.. شيء ما منعني عن ذلك.

اتجهت إلى الله في صلاتي، ودعوته أن يعينني ويلهمني القوة التي تحميني من الوقوع فيما يغضبه، ورجوته أن يأخذ بيدي.. صليت كثيرًا، ثم دلفت خارجًا أتفقد الطريق أمامي لا ألوي على شيء.. إلى غرفتي الصغيرة القابعة في سطح منزلنا.. جلست على سريري أدافع صورتها التي تتراءى لي في كل لحظة.. سحبت الورقة متطلعًا لما احتضنته من عبارات كانت كالتالي: (أحبك) (أحبك) (أحبك).. كتبتها على شكل قلب يخترقه سهم يتقطر دمًا.

لم أزل منصتًا إلى خالد في سرد قصته وهاجسي أن ينتهي قبل أن يعود أبوه.

أضاف:

كلمات الحب التي كتبتها، وصورة ملامحها التي لم تفارق خيالي كانت الحلقات التي تشد قبضتها حول خاصرتي لا أستطيع الخلاص منها.. ثم أردف:

أسندت رأسي على حافة السرير، حيث أخذني في رحلة غيرت كل تفاصيل وجهها وفي كل مرة أفيق محاولًا تبديد خيالاتي الواجفة، فيرتد إليَّ وجهها بشفتين مرتجفتين تنبئان عن سر دفين لم أزل أحاول فك أسراره في حلم يقظ.. تناهى إلى سمعي صوت المؤذن لصلاة العشاء قمت وتوضأت وخرجت.. وبينما أقطع الشارع متجهًا إلى المسجد وإذا بشيء يطوق يدي اليمنى!! كان الشارع بتقاطعاته وأزقته يتنفس الليل من وحي الظلمة التي تنبعث بكل زاوية منه.. التفت إلى مصدر الأنفاس المتهالكة وإذا بوجهها يشع نورًا وبهاءً.. كدت أسقط من هول تداعي الأحداث سريعًا (جواهر) لم أستطع أن أتفوه بكلمة.. حاولت أن أنزع يدي من بين أناملها الرطبة.. أحسست بالمؤامرة تمشي على أقدامها وتتشبث بي.. مؤامرة فتاة لا أبهى ولا أجمل منها وكأنها تريد أن ترمي حجرًا لتسد به رمق الأسئلة التي تحاصرني وتؤكد حبها فرضًا وعنادًا.

صرت أقلب بصري في كل اتجاه خوفًا من أن يرانا أحد.. أدركت مقدار خوفي وارتباكي وثقتها من أنها لن تكتشف بسهولة مادامت محاطة بعباءتها التي تتساوى النساء في ارتدائها.. سحبت يدي للخلاص من ورطة الموقف التهمة وهي تقول: تهرب مني؟!

أدركت أني في موقف لا أحسد عليه (قشة في مهب الريح).

ظلت تحاصرني من كل اتجاه في الصباح وفي المساء.. صرت مملوكًا لإرادتها وجرأتها الجبارة.. لقد عيل صبري واستنفدت كل قوى التحمل الكامنة، فلم أعد قادرًا على المواجهة.. أصبحت كمرايا مهشمة تلتقطها فتشكلها كيف تشاء، لا أستطيع إلا أن أراها فقد أعياني الهرب، تكورت مثل حبة خرز في قلادتها الزمردية، وصارت آلة الزمن التي أعرف بها الوقت والهواء الرطب الذي أتنفسه.. انظر: (سحب من بين الكتب المتراكمة على الأرض كتابًا بحجم صغير) انظر إلى هذا الديوان، لقد حفظت أشعاره من أولها إلى آخرها.. قدمته لي هدية! انظر ماذا كتبت على صفحته الأولى:

لقيتك بعد نأي واشتياق ولم أك عالمًا أين التلاقي

وكنت أهيم في دنياك علِّي أراك تلوح ما بين الرفاق

وفي الصفحة التالية كتبت:

أهدي أغاريدي إلى روضة  أرسلت فيها ناظري يتجلى

فأصبحت روحي في نشوة  تزف كما الظل على الجدول

استرسل خالد في سرد قصة وقوعه في فخ نصبته له (جواهر).. كيف وضعته فرضًا ثم طوعًا على أعتاب الحب!! لم أكد أصدق ما سمعت.. كانت الحكاية ضربًا من الحلم ربما ظننته يحلم.. حاولت إعادته إلى صوابه فنهرني ثم سحبني من يدي وقال: سأفتح الباب الآن كن مُختبئًا؛ لترى.. وفي هذه الأثناء قدمت سيارة خمنت أنه والده وكانت فرصة سانحة لأعتذر له بلطف وأرحل.. ودعته بكلمات تملؤها الحسرة قلت له: (اتق الله).

وقبل أن تقف السيارة كنت قد رحلت مخلفًا نارًا تضطرم بين جوانح خالد.. الله وحده يعلم إلى أين ستوصله؟ تأكدت أنه اللقاء الأخير الذي يجمعني به، فقد وضع آخر النقاط على آخر الحروف، وحدد طريقه، آثر أن يقضي أوقاته متقلبًا على لوعات الحب وسهام النظرات.

خرجت ذلك اليوم أتجرع مرارة الحسرة على ما آلت إليه حاله تتجاذبني مجموعة أسئلة تبحث عن إجابات محددة: هل سيترك الجماعة

نهائيًّا؟ أم أنها حالة تيه سيتغلب عليها ويعود؟ ثم هل من المستحسن إخبار الشيخ عن تفاصيل الحكاية مع وعودي القاطعة له أن يظل كل ما دار بيننا ذلك المساء في حرز أمين لا يطلع عليه أحد؟ وسؤال آخر صعب جدًّا يراودني قبل أن ألتقي به، واتضح جليًّا يطل برأسه النكد بين الفينة والأخرى يقلب كياني ويعيد تشكيل خارطة تفكيري ومسلماتي التي أؤمن بها.. إلى متى نحن سادرون في هذا الطريق المعبد بالشهوات والمحفوف بالعذابات على الرغم مما نحسه من متعة ونتذوقه من حلاوة؟ فالخوف الذي يساورني والشكوك التي تنتابني أن نتساقط الواحد تلو الآخر كأوراق الخريف، فطريقنا يسير باتجاه معاكس والضغوط المحيطة تزداد يومًا تلو الآخر، ويخفف من وطأتها التفافنا اليومي لساعات طويلة من النهار والليل لا يفصلها إلا النوم وكلمات الشيخ المطمئنة التي تعيد إلينا طمأنينتنا وثقتنا في أنفسنا وبأهدافنا وأهمية عملنا، وكما يحلو له أن يصفنا دائمًا بأننا نحن القابضون على الجمر، يجب ألَّا تشغلنا بعض التفاهات التي نتلقفها من ألسنة الناس، فالنصر في النهاية حليفنا فتسكن نفوسنا وتستقر أفئدتنا.

تلك الليلة المشؤومة التي قضيتها مع خالد عرت كثيرًا من الأشياء ووضعتها في مكانها الطبيعي، فلم أكن أصدق أو ينتابني أدنى شك في تفانيه، وإخلاصه وتحديه للواقع نفسه.. فقد كان مشاكسًا لكل متطاول

أو متجرئ على أي عضو من أعضاء الجماعة.. وهذا ما يفسر سبب مقت أبيه لنا ومقابلته لنا بكلمات منتقاة من قاموس السب والشتم.. بت أتقلب على أشواك أسئلة كبيرة تورطني وتفتح أمامي أبوابًا موارية.. أقنعت نفسي زورًا أنني تمكنت بجدارة أن أوصدها إلى الأبد.. لكني في تلك اللحظات العارمة قررت أن أسقط خالدًا من ذاكرتي نهائيًّا.

# رقابة صارمة

أُسدل الستار عن مرحلة من حياتنا؛ لتبدأ مرحلة أخرى بهموم مختلفة وأسلوب عمل مغاير، فقد حددت صلاحيات وواجبات كل عضو من أعضاء الجماعة، وأُعيدت صياغة المجموعات بما يتناسب مع الفئة العمرية.. لقد أوكل لكل واحد منا مهمة الاعتناء بمجموعة من الشباب الصغار ومتابعتهم، على أن نجتمع نحن الكبار بعيدًا عن الصغار وفي الأسبوع مرتين؛ لمناقشة ترتيبات الأنشطة المختلفة، وتقرير مفصل عن الأعضاء ومستوى أدائهم ومدى تحليهم بأخلاق الجماعة، وقدرتهم على تمثل ما يُملى عليهم.. وكانت الرقابة الصارمة لا تقتصر على العمل داخل الجماعة، بل تتجاوزها إلى محيط المجتمع بأسره، وكان كل ما نقوم

به يدخل في مجال الدعوة إلى الله، وهداية الناس، وتمثل قول الرسول – صلى الله عليه وسلم–: (لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم)، فنتسابق لنيل هذا الشرف العظيم باستقطاب أكبر كمٍّ من الشباب الذين نجد أن لديهم الرغبة في الانضمام إلينا، ولا يجرؤون بفعل المؤثرات المحيطة التي تصفنا بالانعزاليين، ولكن انتصاراتنا سريعة وحاسمة، فسرعان ما ينتسب أحدهم إلينا؛ ليدرك أنه دخل حياة مختلفة تمامًا.. حياة منظمة ومحسوبة في المواعيد والسلوك وحتى الألفاظ، ولا يتطلب من المنتسب إلا أن يكون متمثلًا لما نقول ونعمل، وسيجد أنه ينقاد بطواعية إلى سر حياتنا ونكهتها المتميزة، ولن يسعه عندها إلا القبول والرضا التام لما يجب عليه عمله، بل سيحاول جاهدًا بذل العمل، ولن ترفع عين الرقيب إلا بعد مدة تمكن من التحقق من فهمه لدورنا وأهدافنا، ولكن دائمًا نحقق أواصر المحبة لبعضنا، ونؤكد عليها بالعبارات مثل: أحبكم في الله.. أو عند التعريف: أخوكم في الله.. ونذلل لها كل الظروف لتصب في جدول واحد ونشترك في تفكير واحد وصوت واحد، فلم يكن ثمة اختلاف اللهم إلا في أساليب العمل.. وأي خلاف عادة ما يُحسَم بتدخل الشيخ؛ لينتهي برضًا تام وقناعة، لا جدال بعدها.. لم يكن النقد الموجه يخرج عن عبارتي «لا يجب» أو «لا ينبغي»، وينتهي كل شيء.. بما لا يسمح بتسجيل مواقف مجانية أو

مدفوعة بمقت الشائين للجماعة، وحتى لا يستكن في قلوبنا شيء من المقت أو الكر هـ، ولكي نصفي أنفسنا من حرج المفاضلة تقدم الأشياء من اليمين إلى اليسار حتى لو كان أصغرنا.

وفي هذه المرحلة أصبحت الحياة أكثر من متعة آنية أو نشاط يحل إساره مع ساعات الليل الأولى، بل همًّا يقبع في صدورنا على واقع أمتنا، فعلى الرغم من أنني نجحت في مسح خالد من قائمة همومي؛ وانتزعت نفسي من براثن عمليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أن ذاكرتي المشبعة بالقيم والمبادئ لا تكف تعيد أمامي صياغة القيم والمصطلحات وحتى العبارات وقد اتضحت أمامي الآن بشكل مسيطر كهاجس (الأمة) التي لا تحدها حدود بشرية أو طبيعية أو عرقية.

تعلمنا كيف نكوي قلوبنا بهمِّ الأمة الإسلامية، ونتقلب على أحر من الجمر عندما نقرأ ما حصل للمسلمين على أيدي الهندوس، وما يحصل للمسلمين في كل أرجاء العالم.. تُنقل لنا الأخبار من مجموعة من المصادر: منها المجلات الإسلامية كمجلة الإصلاح أو المجتمع، ومنها ما يُنقل شفاهة من بعض الوافدين من العالم العربي سواء كانوا طلابًا أو علماء.. الذين كانت تعقد لهم الجلسات ونُدعى لها على اعتبار أننا في مركز القيادة.. يبدأ الحوار المفتوح بكلمة موجزة للعالِم أو الشيخ

المُحتفَى به، ثم يُفتح باب النقاش على مصراعيه لتعبر عن مدى ما يكنه الشباب للشعوب الإسلامية خصوصًا، والشعوب التي تعاني من اضطهاد دولها لها أو اضطهاد بعض الجماعات العرقية أو الدينية لها؛ لينفض الاجتماع قبل حلول منتصف الليل.. فنعود إلى منازلنا أو بالأحرى فرشنا حاملين إحساسنا بالقهر والاضطهاد لما يعانيه إخواننا المسلمون في كل بقاع العالم.. إلى أن يبحر بنا النوم إلى عالم الأحلام التي ترحل بنا في اتجاه مُعاكس للزمن، فنرى أننا في معارك حامية الوطيس مدججين بالأسلحة في معركة شرسة مع الأعداء.

استطاع إبراهيم في هذه المرحلة بالذات الأكثر تنظيمًا ومتطلبًا من المراحل التي مرت بها الجماعة منذ تأسيسها أن يواكب المهمات الموكلة إليه بشيء من المهارة والدقة.. بما اكتسبه خلال المدة السابقة من ثقافة دينية واسعة مكنته من أن يتبوأ المكان الذي يقربه من مركز القيادة ويجعله مستشارًا عند الضرورات، ويعهد إليه أحيانًا بإدارة شئوننا عند غياب الشيخ، كما يوكل إليه أحيانًا القيام بدور المساعد أو الرجل الثاني بمعنًى أدق.. كان مطلعًا قارئًا نهمًا لكل كتاب يقع بين يديه، لقد بهرتني ثقافته الموسوعية، وعلمه بالرجال وأنماط السلوك البشري؛ ما مكنه من تقدير ردود الأفعال عند أي طارئ قبل حدوثها..

وكان ينتدب دائمًا بعض الشباب وفق رؤية خاصة ويكلفهم بمهام عادة ما ينجحون في تنفيذها، خصوصًا فيما يتعلق بالتنسيق مع الجماعات الأخرى الآخذة في الانتشار والاتساع في مدينة الرياض.. وكانت جماعتنا محط إعجاب واحترام على اعتبار أنها من طلائع المؤسسات الجماعية والدينية المنتظمة، ومنها انبثقت بعض الجماعات التي ارتضت المنهج نفسه، وأصبحت رديفًا لها في أماكن عدة، حتى بدأ ينظر إلينا كشيوخ، ولا نعجب أو نتذمر حينما تسبق أسماءنا (الشيخ)، فقد اعتدنا عليها، أما الشيخ إبراهيم فكان يُنظر إليه من خلال ما يحمله أيضًا من علم اكتسبه أيضا بمجالسة بعض العلماء.

وفي خضم الأعمال والمهام المختلفة التي كنا ننفرد في زحمتها ببعضنا، كنا ننتهز الفرص أحيانًا للانفراد وتقليب صفحة الأيام والسنوات الخمس المنصرمة، ونذكر بعض مجرياتها وتقلباتها.. يقول إبراهيم:

– تضيق بي الدنيا أحيانًا.. أحس أنني أختنق بين زواياها الضيقة.. أريد أن أنطلق إلى فضاء مختلف.

– أدرك ما تقول! همومنا يا أخي تضعنا في إطار المسؤولية.

قال وكأنه يريد أن يرمي إلى شيء لم أكتشفه بعد:

– صحيح صحيح.. الدنيا يا أخي صغيرة بهموم الناس البسيطة وأحلامهم السقيمة.. شهوة.. حب.. تملك.. كره.. حقد.. أنانية.. وأشياء أخرى مقززة.. مكاننا يا أخي ليس هنا!

الآن أدركت ما يرمي إليه بالضبط قلت مؤيدًا:

– فعلًا يا أخي.. يطل علينا وجه الحياة صباح مساء كئيبًا، نحن نعيش في حصار مجتمع يبتعد عنا بقدر ما نحاول أن نقترب منه؟!

أحس إبراهيم أنني أشاطره الفكرة.. مما فتح شهيته للعب على أوصال كلماته المتوهجة بروح متقدة:

– يا أخي نحن أبناء القرون السبعة.. قلت لك مكاننا في الماضي.

أثارتني عبارته الأخيرة، فتذكرت كتابًا عنوانه: (المستقبل لهذا الدين) لسيد قطب.. قلت:

– المستقبل لهذا الدين، نحن لسنا أبناء الماضي فقط نحن أبناء المستقبل أيضًا، وإن لم نكن أبناء الحاضر، فكل ما نقوم به هو مشروع بناء لمستقبل موعود.

وفي لحظة تراسلت فيها روحانا، انفرجت ابتسامة عريضة مخفية وراءها تقاطيع وجهه العابسة.. في كل عبارة تسكبها أرواحنا الملتهبة تتفجر طاقات لا يسعها وجه الأرض، تظل أبدًا متدفقة في اتجاه علوي وكأنها تمتطي صهوة السحب لترحل بها في آفاق نروم الوصول إليها من خلال أعمال دؤوبة لا تنقطع ولا يفت منها الخور.. كنت أرقب إبراهيم يتهادى بين جموع الناشطين كمن ينفث في أوصالهم سحرًا يفجر طاقاتهم.. كانت مجالسته فياضة مترعة بما يسوقه من أخبار وملح وطرائف يلتقطها من هنا وهناك، ويسقطها مباشرة على واقع الناس وحياتهم.. أسَّر لي يومًا قائلًا:

_ أنت لا تعلم أنني أعوِّل كثيرًا على مصنف ابن عبد ربه (العقد الفريد) فهو الجامع المانع لأخبار العرب وأيامهم وأدبهم.

- ولكن هذا.. مما يتنافى مع مصادر النقل المعتمدة في قائمة الجماعة.

- لذلك لا أجرؤ على الكشف عن مصادري في النقل، على الرغم مما تتوافر عليه من ثقافة موسوعية، ومعلومات ممتازة، مثل: إحياء علوم الدين للغزالي، سمعت مشايخنا كيف يحذرون منه، مع أنه من أمتع الكتب وأجلها علمًا وثقافة؛ أتمنى عليك

الاحتفاظ بهذا السر.. المشكلة إني متماش مع منهج الجماعة فيما يمكن أن يُقرأ، وما لا يُنصح بعدم قراءته نهائيًّا، وأنا من يضع القائمة، في القائمة الأخيرة حجرت على كثير من الكتب من خلال قائمة عريضة حددتها بالعنوان والمؤلف، كما حددت الكتب المسموح بها...

اتسم خطابنا الديني بالمرجعية المنضبطة، الذي يكشفه الأسلوب الواحد في الطرح.. بينما تجاوز إبراهيم الخطوط الحمراء بعيدًا عن عين الرقيب ناهلًا من مختلف صنوف الكتب والمراجع.. زرته ذات يوم في منزله واطلعت على مكتبة حافلة بصنوف العلوم والمعرفة من كتب تاريخ وأدب ودين، فلم أصدق أنه قرأ كثيرًا ويعد لقراءة أكثر.. أثار استغرابي وفضولي كيف يلتقط أوقاتًا كافية يخصصها للقراءة.. امتدت يدي عفوًا إلى كتاب ملقًى على الأرض بعنوان (من بعيد) لطه حسين.

سألته وعيناي تتجولان على مهل بين الأرفف المتراصفة:

هل قرأت هذا الكتاب؟

أجابني متلعثمًا: نعم قرأته وأعجبني.

قلت: لكنك تعلم موقفنا جيدًا من أمثال هذا الكتاب ومؤلفه.

جاء استنكاري مدهونًا بشيء من الإعجاب، بقدرته على اختراق حواجز لم أكن أجرؤ عليها.

سألني: هل تريد الكتاب؟

قلت بتردد: لا.. شكرًا.

حاول إبراهيم سحب قناعتي إلى ما يمكن أن يواري سوأته فيما لو افتضح سر مرجعياته وثرائه الفكري.. قال متسائلًا:

أليس من المهم قراءة الصالح والطالح؛ لمعرفة ما يدور في فلك العلم والمعرفة، نأخذ منها ما يفيدنا ونطرح ما لا يفيد؟! كنت متاخمًا لحدود ما يفكر به.. ليست عباراته وحدها الدافعة لي لاستعارة كتاب احتضنته يداي بحميمية، بل عنوانه وبضعة أسطر قرأتها بعشوائية.. كان (الإمتاع والمؤانسة).. قلت بصوت خفيض: هذا ما أريده بالضبط لآخذ الكتاب خارج حدود التواطؤ ذلك الذي أراه دائمًا يمشي على قدميه.. ثم أطلعني على كتب كثيرة لم تستوعبها ذاكرتي جيدًا عدا ما ألتقطه من أسماء مؤلفين.

أصبح إبراهيم بمثابة المتحدث المفوه والخطيب الذي لا يُشق له غبار.. يتحدث بلا ملل، وعندما يعتلي المنبر يأسرك بقوة بيانه وكأنما

يفتح أبوابًا للغة لم نعهدها من قبل، فصار ملجأ الشباب عند كتابة مقال أو تصحيح خطبة.. تفجرت ينابيعه الفكرية، خطواته في هذا المضمار أصبحت واسعة تجاوز الشيخ نفسه متوجسًا عليه أو منه خيفة، فقد سيطر على قلوب كثير من الشباب وأصبح قادرًا على تحويل اهتماماتهم من الحركة والفعل إلى السكون والركود.. نلوذ بزوايا المكتبة للقراءة، كما كان يحث الشباب وهو ما تركز عليه الجماعة وإن كان جزءًا من أنشطتها.. الأمر الذي لم يكن مريحًا للشيخ، حيث أخذت الشكوك تساوره.. رسم على أساسها مستقبل إبراهيم مع الجماعة، فقد صرح لي أن إبراهيم ركب أول مفترق طرق إن لم يعد مبكرًا فستبتلعه دروب الله أعلم بها.. لكن السؤال الضجر كيف يمكن تحييده؟! وما فجَّر الموقف أكثر بينه وبين الشيخ مطالبته بمراجعة قاموس الجماعة اللغوي والنفسي، وتحديد الأشياء ووضعها في إطارها الصحيح، فقد كان رافضًا لمصطلح الدعوة الحالية مستعيضًا عنه بمصطلح التوعية والتوجيه؛ لأن الدعوة الحالية تتجه غالبًا إلى غير المسلمين، أما المسلمون في بلد التوحيد فلا يحتاجون إلى أكثر من توعية، وهو المنطلق الأساس للجماعة منذ بدايتها كما يقول إبراهيم ويستنكر عليه الشيخ.

بهذه الكلمات وُضعت النقاط على الحروف وحدد موقعه من الجماعة.. أصبح من الصعب التعامل مع فكر تصعب مجابهته أو الحد

منه؛ إذ بات التفكير ينصب في كيفية التخلص منه بأسلوب لا يبرر خنق كثير من محبيه من الشباب.. عقد لذلك اجتماع لم يدع له إبراهيم، وُضعت فيه خطة مرتبة لاستبعاده.. وفي هذا الاجتماع كان الصمت يخيم على كثيرين، فهي المرة الأولى في تاريخ الجماعة، تكشر المؤامرة فيها عن أنيابها لاستبعاد شاب يُعد أحد المؤسسين لها، كنا نتلقى التوصيات كأوامر علينا تنفيذها، تتركز في مجملها على إدارة ظهورنا لإبراهيم والتقليل من مجالسته أو الاستماع إليه، وسحب صلاحياته وإسنادها إلى آخر، لكن إبراهيم أدرك أن ثمة أمرًا ما يُحاك ضده فلم يحضر الأنشطة ذلك اليوم ولا اليوم التالي، وكانت بداية لضباب طويل أضمرنا حزننا عليه وآلمنا فراقه.. لم يجرؤ أحدنا على مجرد السؤال عنه متواريًا إلى الأبد.

كان لتفريغ إبراهيم من بين صفوف الجماعة أثره السيئ على نشاطاتنا؛ تاركًا وجومًا خيم على سماء الأنشطة برهة من الزمن، مما استدعى وجوب التغيير في أسلوب العمل.. طرحت جميع الاقتراحات، كان أنسبها ضرورة ضم الجماعة إلى جماعة أخرى وتوسيع دائرة نشاطاتها؛ لتشمل الأعمال الخيرية مثل جمع التبرعات وتوزيع الإعانات على المحتاجين، وزيارة المرضى وتوجيه بعض الشاب للانخراط في هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. حظيت هذه الأخيرة بتأييد وإقبال

الشباب عليها، فراحوا يسجلون أسماءهم في قائمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أما الإقبال على الأنشطة الأخرى، فكان متواضعًا، مما حدا بالقيادة إلى توزيع هذه المهام حسب الاستعداد الذهني والنفسي وشيء من الشفعة التي قلما دخل فيها عمل من الأعمال إلا حينما توسعت الجماعة وانفتحت على مجموعات أخرى مختلفة؛ وإذ لم يعد الشيخ حمود مركز السيطرة الوحيد، بل أصبح هناك آخرون لهم وزنهم وكلمتهم، وأصبحنا معهم في إيقاع مختلف كعمال المصانع لا يتعارفون إلا بوجوههم عدا القادة، باهتمامات مختلفة وأهداف مغايرة لما كنا نصبو إليه، فقد كان همنا منصبًّا على احتلال مساحات شاسعة في قلوب وعقول الشباب الصغار، نسيرها في إطار أعمال جماعية تصب في النهاية في بحار واسعة من الآمال المعقودة في إخراج هذه الأمة من جحيم الضلال إلى نعيم الصلاح.. بينما الوافدون الجدد كانوا يفكرون بطرق وآفاق بعيدة جدًّا عن عقولنا التي لا تتجاوز حدود المكان، فلأول مرة يطلب منا العمل على توزيع منشورات على المساجد المنتشرة دون التحقق من فحواها للثقة المتناهية في كل منتسب، وكنت أحتفظ ببعضها وآخذها معي إلى المنزل وحينما أستعد للخلود إلى النوم آخذ بعضها وأقرأ، وعلى الرغم من أن محتواها لا يأتي بأكثر مما أعرفه إلا أن شيئًا يتوارى خلف الأسطر يحفزني لقراءتها أكثر من مرة، حتى

بدأت أدرك معالم ما يقبع خلفها من عمل منظم ودقيق؛ مستدلة هذه الأسطر المضمنة بآيات قرآنية وأحاديث شريفة لا يختلف عليها.. وكنت أحاول أن أفك رموز هذه الشفرة أو طبيعة العمل القادم للجماعات الوافدة.. ومما آثار فضولي ابتعاد الشيخ حمود فجأة عن الجماعة لأسباب صحية كما يقول؛ إلا أن زياراتنا المتكررة له لا توحي بذلك، لأن صحته كانت على ما يرام عدا مزاجه المتعكر، وكنت في كل زيارة أطالبه بالعودة لكنه يلتمس العذر في أنه (تعبان) وربما لا يعود قريبًا طالبًا منا الالتزام بما تعلمناه منه وموافاته بكل جديد، يدفع بتأكيده المستمر لنا لأخذ الحذر في تصرفاتنا.

وعلى الرغم من غموض عباراته في وجوب الحذر إلا أن الشكوك صارت تساورنا، وعدم الارتياح أصبح رفيق أعمالنا ونشاطنا، خصوصًا مع الشيخ القائد الجديد (سعد)، الذي تسلم الأمر بعد الشيخ حمود أو بالمعنى الصحيح انفرد بالقيادة.. وكانت معظم تقديراتنا في لقاءاتنا الأخيرة لأسباب ترك الشيخ الجماعة هو عدم الارتياح من الأسلوب الذي ينتهجه الشيخ سعد، فقد كان نزقًا سريع الغضب بقدر ما كان نشيطًا وعالمًا بأمور حياته ودينه كثيرًا، وكان هذا محط إعجاب الآخرين ولم يكن مثار إعجابنا ألبتة.. وقد أدرك بذكائه ما نكن له من عدم اقتناع بأساليبه، وما نضمره له من عدم مودة، وعلى الرغم من محاولاته

الكثيرة لإقناعنا بشخصيته وأهدافه.. وما لا يرغب منه أكثر اجتماعاته المطولة بعدد من جماعته، وتنحيتنا جانبًا.. وعادة ما يخرجون بعد كل اجتماع محملين بأوراق وكتيبات يطلب منا نشرها، وكانت تحمل تعليقات لأكثرهم.. كان ذلك الصيف المختلف بقدوم الوافدين الجدد واختفاء شيخنا عن النشاط الشبابي صيفًا مكفهرًّا ثقيلًا اختفت معه علامات الابتهاج والمثابرة، كما تسربت من نفوسنا روح العمل والتفاني في أدائه.. أصبحنا معهم داخل مصنع منجم يحتاج إلى إضاءات خاصة نعلقها فوق هاماتنا لنميز بها وجوه بعضنا البعض.. كانت أيامًا عصيبة نبحث فيها عن ساعة خلاص، فلم نصدق أننا على أعتاب نهاية السنة؛ لينفض هذا الموال ويذهب كلٌّ إلى شأنه.. عدت إلى صفوف الدراسة النهائية تغمرني سعادة ذات مذاق مختلف أصبحت وقتئذ على أعتاب مرحلة مهمة وحاسمة وعلى مسافة قصيرة جدًّا بحسابات الزمن تضعني على مفترق طرق، وتحقق لي انتصارًا يؤكد ذاتي! بيد أنَّ شيئًا ما يسقط فجأة وله دوي يصم الآذان خارج حسابات المنطق؛ الشيخ الموجه انتقل إلى رحمة الله.. تداعت أشياء كانت تصر بصوته هو على البقاء شامخة.. لم تكف الدموع.. حتمًا لن تعبر جيدًا.. والآهات كانت أكبر من حلوقنا المتيبسة.

# وعي الذاكرة

في كل ركن وزاوية طُبعت ذاكرة.. في كل فصل رُسم وجه من الوجوه.. أصبحت مثل قشة في هباء، وأحسست أنني أسقط في غيابة جبٍّ لا قاع له.. كل شيء استحال أمامي إلى تفاصيل عابسة.. حاولت أن أستنهض بقية قواي المدمرة أسندت ظهري إلى جدار.. صرت أقلب بصري إلى الجهات باحثًا عن مسافات أخرى تصلني بعالمي الذي يتمزق كسحابات تتمطى مهرولة إلى لا شيء.. أدركت أنني أتبدد كالهواء، أنني أفقد وجهي الذي نحتته طقوس السنوات الماضية.. يرتد صوتي كلعنة شيطانية كنت أدافعها بأوراد المساء والصباح..

حاولت للمرة الأخيرة أن أكبح جماح الأسئلة النافرة، أن أقاوم سلطانها، طالما هربت من مواجهة حرابها الناشبة منذ أن علَّمت تلك الكف الرعناء على وجه زميلي.. عدت إلى البيت مشحونًا بعذابات تمطرني بوابل من الذكريات لم أقدر على الفكاك من إسارها.. تبدى لي وجه الأستاذ عمر الكالح.. لعنت الساعات والأيام.. ينتابني شك وريبة يحيرانني.. شيء ما أضمره كتعويذة أتمتم به بما دون البوح خوفًا من مغبة السقوط في آثامه.. عمر القاطن اسمه بين أفواهنا كمضغة نلوكها صباح مساء لم توار حنكته عريه يركض صاعدًا في مضمار يدنفه ويهوي به إلى مستنقع آسن تتخضب به لحيته الممتدة إلى حدود تلامس قناعات البسطاء.. تضعه في حسابات أولياء الله.. يطرب وينتشي لمجرد إكبار ما علق بوجهه كستارة تخفي وراءها دهاليز وأبوابًا مواربة.. ويشحذها في كلمة خطابية يماري بها مستعرضًا قدراته العقلية والذهنية.. يرتفع صوته المبحوح مترنحًا تحت وطأة الكلمات الثقيلة.. ونبراته المستهجنة تثير ضحكاتنا ويستميلنا لممارسة عهر العبارات السوقية.

بدت صولاته في صميم هذه المعركة مزورة مكشوفة بلا ذائقة، عطبه الوهم، أضاع ذاكرته بين أضابير صفراء، يحتضنها كسيف مترع بشهوة التشفي ينثر أشلاء التاريخ وحكاياته الآبقة بحرارة ما يتقد في جوفه، ويرغي كجمل ينحر، يطبق على لسانه وكأنه يلحس طيف

الكلمات الشاردة يعيد صياغتها، ثم يلفها بإغراء مكشوف بآيات قرآنية بصوت يثير الشفقة والحنق.. أدرك أنه فريسة تحركاتنا باتجاه يسد منافذ المواجهة.. يقف متربصًا لنا في غدونا ورواحنا ملتقطًا أنفاسه المتناثرة في محاولة سافلة لاستثارتنا؛ عله يظفر بفرصة تفتح له ثغرة يقدم من خلالها الأذى ويكيل الشتائم.

كان يقذف بحممه النفسية بما لا يدع مجالًا للشك أنه يمارس دور المأزوم أو المتورط مع استقامته المتهالكة على اعتلاء سنام تقصر به قدماه عن اعتلائه:

– كلكم منافقون، وأولاد كلب!

لقد غشيتني هذه العبارة الأخيرة كخيبة كبيرة وحسرة على شيء يتكشف لك بعهر فجأة.

رحل يتقي بيديه وهج الشمس اللافحة كمن يتشفى بحرارة ما يستعر داخله.. استحال المنظر أمامي إلى قطعة قماش تفوح منها رائحة زيت يحترق.. تبدى وجه الأسئلة القميء: كيف كنا نفكر بأيدينا وألسنتنا تردد تلهج بما تلقف من روع الشيخ لم يكن يسمح لنا.. كل شيء يقدم جاهزًا.. نحن نؤدي أدوارًا منضبطة في إيقاع لا يعتريه نشاز..

ننساق وراء هالة أضواء تشدنا إليها في سباق للالتحاق بألوانها المتمازجة للوصول إلى أقرب نقطة ضوء أو فرجة تتسلل منها ألوان طيف برائحة مخضبة بالمطر، نوغل في عالمها السرمدي الساحر، فلا نلتفت إلى حيث أصوات تقذف بها ألسنة الناس، تطل كرؤوس الشياطين، فيضيء لنا الشيخ حمود دربًا آخر يقينا مغبة الوقوع في شراك الدنيا وملذاتها؛ لتظل أرواحنا مشحوذة بالاستقرار والتسليم المطلقَين دون الحاجة إلى البحث عن منافذ تصلنا بإجابات تمرق في عقولنا وتستقر بين جوانحنا كطيور الليل في جحيم ظلمة حالكة.. يقول الشيخ: «إياكم والوقوع في السيئات، فالسيئة تلد أختها، وهي طرق محفوفة بالويلات والآلام والجراحات»..

يؤكد الشيخ قوله بـ: «النار محفوفة بالشهوات، وطرق الجنة محفوفة بالعذابات فطوبى للصابرين»، ثم يسوق حكايات لأولي العزم من الرسل وصبر صحابة رسول الله على الأذى؛ قدموا أرواحهم فداءً لله واحتسابًا للجنة الموعودة.. كنت أرتمي في أحضان هذه الكلمة أتنفس رائحتها.. ترتسم لي أحيانًا ماثلة في صحوي وحلمي الذي يمتد كسراب يتمطى بين عيني الواجفتين.. جزيرة خضراء تسكنها أحواض ماء زرقاء، تتوزع الحوريات بين جوانبها في غنج وشهوة.. تقطف عناقيد عنب وتفاح ورمان، ثم تتوهج جمالًا ونظرة.. يقف بعضهن بقامات ممشوقة فتشرق

عسجدًا يبعث روائح عطرية أشمها فأوغل سابحًا إلى أعماق المنظر محاولًا الوصول إلى أقرب مسافة تصلني بحورية تُجسد الجمال والفتنة وتنثر كوامن الشبق المكبوت.. تتدفق في عروقي المحماة، وتنسكب حلاوة تستشري في عروقي، ثم أنتشي بسعادة غامرة وإصرار على ركوب قارب المغامرة للسباحة ضد التيار ومجابهة الأخطار؛ فيبدو العالم من حولي جحيمًا أصطلي بلهيبها.

الآن في لحظات كل شيء يتجسد أمامي ركامًا زائفًا.. الناس الملبدون بشهوات الدنيا يمارسون طقوسًا دينية مجردة، معرفة الله لا تصل إلى أبعد من حلوقهم الممتزجة برائحة الدنيا النتنة.. أراهم يتقلبون في ملذاتها، طغت عليهم شهواتهم؛ فتنتابني قشعريرة ومقت ونار تضطرم في صدري.. مقت كل فرد من أفراد المجتمع.. كان عمر والشيخ سعد وجهين لعملة واحدة ترسم نقوشها نَزَوَتِيَ الشهرة والتملك، بيد أنه لم يكن قادرًا على تفكيكنا كما كان يروم.. ربما أدرك متأخرًا أن دماءنا تصب في شلال واحد جرفته تعاليم الشيخ كقشة أو شيء من الزبد يُلقى به في اليم، فتصعقه الشمس ويتبخر.. اختفى سعد، وعمر، وشيخ الهيئة.. تواروا ربما في مسرح آخر بتصنيف مختلف يضعهم في مقدمة جماعة أخرى تشاطرهم طموحات موغلة شهوة مزركشة بإيحاء تديني سمح يسوقونه على الناس كسلعة مدفوعة الثمن.. تختلج فرائصهم حينما

نصادفهم على أبواب المساجد والجوامع يلملمون الصدقات والمعونات بادعاء كاذب أنها ستصل إلى مستحقيها، وكأنهم بأصواتهم المبحوحة يوزعون صكوك الجنان من قعر كرتون أو صندوق سيمتلئ لا محالة بالنقود.. تكدست جيوبهم بالنقود.. وهم لا يزالون يتسولون بصوت الفقراء الجياع.. أحمل تفاصيل هذه المشاهد فتستعمرني نوبات غضب وحزن أحملها كسكاكين تمزق خاصرتي.. أنثرها بين يدي تعاليم الشيخ حمود.. أتوسل إليها أن ترد الصدى.. شيء ما يعلق فتعقد لساني.. كان يردد: الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها.. كانت عباراته على غير العادة تصطدم بحواجز شائكة من الأسئلة والرفض تحاصرني وتزعق في وجهي تتخبطني كمس الشياطين.

أزحف بعينيَّ كمداد حبر موغل في سواد ينسكب على صفحات ورق ناصع البياض.. أخاتل المسافة المحكمة بين أنفاسي الخائرة وسطوة الصوت المتسلل من فضاء أستبيح حرمته، أجوس على حذر، وكما كان يردد الشيخ دائمًا: «إنما تأكل الذئاب من الغنم القاصية».. في هذه اللحظات الحاسمة وفي الهزيع الأخير من الليل تتشابك أضواء راقصة وحيرة منتشية تطفح فوق وجهي المكدود، أستعيد منها مقومات شخوصنا المتربعة على هرم مركب من أدوات يصعب الفكاك منها أو

التخلص من بعض أجزائها، لنشرف من خلالها على مدينتنا الراقدة عبثًا في كبد صحراء جافة تتنفس وجه الشمس ما هضمته في النهار.

# رائحة الموت

تمايلت أشعة ضوء القمر الهاربة خلف هالة من سحب الصيف النكدة تزحف نحو أجسادنا المترطبة.. أقرع الحجارة بين قدمي المتغضنتين بدماء مكتزة من عناء يوم يخالجه ليل محموم بالاكتشاف.. عدت في ليلة هروب بحثًا عن وجهي المفقود حيث ألقيته على قارعة طريق منذ سنين بين أزقتنا المهجورة راجفًا أتمطى.. أبدد ظلالًا تحاصرني.. أرتشف كتلة هواء ساخنة تحوم حول أنفي وأحبسها في صدري، أستمد منها هواءً يكفيني لاجتياز بوابة العبور الضيقة الفاصلة بين شارعين، أحدهما يؤدي إلى بيتنا، ينفض الناس.. تستعمرني وحشة كنت نسيتها، وحشة تقبض أوصالي وتعصرني إلى آخر شريان أسمعه

ينبض محركًا وجيب قلبي المستوفز كطفل صغير يحلم برائحة أمه تمامًا كما أحلم به في هذه اللحظات، قطعت هذه المسافة الصارمة، تطل منها وجوه مخيفة تمرق بين عيني تفرز قيحًا وصديدًا يزكم أنفي، كنت أحفز قوى الإيمان الكامنة، أتمتم بآيات من القرآن الكريم.. تذكرت آية الكرسي، قرأتها مرات إلى أن وقفت قبالة الباب في هذه الليلة وعلى غير العادة كان مواربًا، لم يكن الوقت كافيًا ليتسرب الخوف من أوصالي المكدودة وأنتشل أنفاسي من مستنقع الخوف بالقدر الكافي لاكتشاف سر هذا الباب الموارب على غير العادة.. دفعته على حذر وتؤدة كي لا يبوح الباب بصريره المعهود، وقفت أسترق النظر إلى أغوار البيت، كانت لحظة راعفة بالخوف والقشعريرة..

تناهى إلى سمعي أنين يشبه البكاء... أحد ما يتألم.. ولجت المنزل تاركًا الباب مواربًا، أجتر خطواتي المتهالكة في وجوم، وبين تضاعيف بيتنا الضيق الذي أعود إليه بعد طول غياب أعيد اكتشافه حيث لا نور يكفي لتمييز الأشياء.. اصطدمت بحافة جسم غريب، انتزع ظفر إصبع قدمي.. كتمت صرخة ألم كادت أن تند من أعماق الألم الذي أتجرعه.. وضعت يدي على الجدار أتلمس دهليز الليل المعتم الممتد بين جوانحي واضعًا يدي على حافة الشيء الملقى على الأرض.. شيء ما توحي تضاريسه عن سلم خشبي عريض، يمتد إلى (حوش) المنزل وطرفه الآخر

ينتهي في نهاية المدخل.. كلما أوغلت متوجسا خيفة بين تفاصيل المنزل متتبعًا مصدر الأنين.. تصاعد صوت بكاء خلته أحد إخوتي يجتر عذابات الليل وأمراضه، لكنه صوت لم أسمعه قط تمخض عن أصوات أخرى.. ثبطت خطواتي عن مواصلة المسير، وضاعفت من أهمية اكتشاف الحدث، لقد تلاشى ألم الجرح النازف مأخوذًا بمحاولة اكتشاف صوت يتقاطر مأساة.. انتابني خوف من نوع مختلف.. تلمست طريقي إلى الدرج المؤدي إلى الغرف العلوية وبينما كنت أهم بوضع قدمي على أول درجة منها برز جسد سد حلق باب الدرج العلوي.. خمنت أنه والدي وتأكد لي من صوته المرتجف على غير العادة كان سؤاله هادئًا عليه مسحة كدر:

– عدت؟

ثم أردف: اصعد إلى أمك، واسألها ماذا تريد قبل أن نخرج.

– يخرج في مثل هذا الوقت؛ الساعة تشير الآن إلى الثالثة صباحًا!؟سلكت طريقي شارد الذهن مبلد الخاطر مرهق القوى دامي القدم، قصدت أولى الغرف المجاورة لغرفة جدتي دفعت بابها بيدي انفتحت دفتا الباب كاشفًا عن مصدر الصوت المتواصل نحيب أخواتي اللاتي جلسن القرفصاء دافنات رؤوسهن

بين حجورهن ينتحبن.. أخذتني الدهشة والخوف من مصاب لم أستبن كنهه إلى قبيل تيك اللحظة الموجعة.. قفزت إلى ذهني صورة وجه جدتي، رأيته شاحبًا يتوارى خلف كتل.. ضباب ليلي يرسم بخطواته الوئيدة تقاسيم للحزن والفراق.. خفقت هذه الصورة في روعي فانتابني رعب هزني، كدت أن أسقط.. سألت الله أن أكون أهجس بخرف ليلي.. أهذي، أدرت ظهري متجهًا إلى غرفتها.. ألفيت بابها مواربًا، وقبل أن أهم بالدخول انحنيت برأسي أتفحصها، أبحث عن أمي داخل الغرفة، لم أكن أستبين سوى صمت يلف المكان، مددت يدي المرتعشتين، دفعته بهدوء، فانفرج عن أمي.. كانت جالسة قبالة جسد جدتي المسجى على الأرض والدموع تملأ محاجرها، وقد بدا وجهها شاحبًا حزنًا.. تدفق شلاله مندفعًا إلى أعماقي لأهوي بجسدي على صفحة الأرض الإسمنتية الصلبة منتحبًا ببكاء يمتد إلى آخر تفاصيل جسد يكسوه الحزن فجأة، أصبحت كمرجل يغلي، لم أعِ كم كانت الساعات التي قضيتها ممددًا على الأرض أفرغ أوصابًا وهمومًا راكدة ابتزها حزني على فراق جدتي.. كان صوت المؤذن على غير العادة مرتعشا خائرًا يبسط على الفضاء المعتم عباءة حزن موشًى بالدموع ومحاط بسياج الأنفاس المبتورة

اللاهثة.. اختفت جدتي.. توارت تحت كثبان من الرمل والتراب انهال على جسدها الطاهر.. كان عزائي وتسلية همي طافرًا من وجهها الوضاء.. أجلس بين يديها كطفل تحتضنه أم رؤوم، مفترشة سجادة صلاتها، أستنشق روح الإيمان من بين أعطافها، تمتلئ رئتي برائحة مركبة تستكين إليها نفسي.. كانت جسرًا معلقًا يصلني بعالم أخروي ممدود إلى بوابات الخلد.. أسرح في أفقها الذي لا ينقطع من الذكر وترتيل آيات القرآن؛ فتبعث في نفسي طمأنينة مختلفة، كانت تقرأ القرآن تتتبع آياته من المصحف على الرغم من أنها لم تكن تفك أبجديات اللغة، فتتملكني حيرة واستغراب تتراءى لي بوجهها المخضب بعلامات الزمن، تتراءى طفلة صغيرة تتضافر بأردية بيضاء.. أركع بين يديها، أقبلها بلا ملل، أَشتمُّها.. تضحك، ثم تخرِج من تحت وسادتها مجموعات قصصية أودعتها إياها لأقرأ لها شيئًا منها عن قابيل وهابيل وقصص أخرى واقعية مؤثرة.. كانت تحب أن أعيد عليها في كل مرة قراءة كتيب صغير معنون بـ(عدالة السماء)، أذعن لها وأقرأ كما تحب بصوت مسموع وشجي، تريح رأسها على صفحة كفها فلا أكاد آتي على نهايتها إلا والدموع تنهمر مبللة سواد خمارها، تكفكفها بذؤابة (غدفتها) مهللة مكبرة..

أتأملها في وجوم مأخوذًا بسحر نفحات الإيمان التي تنبعث كرائحة عطورها القديمة، فتنفث في وجداني عصبًا يهزني ويدحرجني ككرة نارية مضطرمة لا أدري أي مسافة تأخذها أو تزيد من أوارها.. تأمرني أن أتابع فأتابع.. كانت هي ذاتها الحياة التي تختلج في البيت كنسمات عليلة.. عبارات العزاء لأيام ثلاثة متوالية.. شعارات لاستمراء الحياة، وإعلان آخر يكشف عن نكهة الموت القاطنة بين حناجر النسوة المنبعثة من الحجرات الداخلية.. لم يكن الموت قبلًا يعني أكثر من جسد يُسجى أمام المصلين للوداع الأخير، ليحتضنه بطن الأرض.. زحف مستلًّا روح جدتي: الروح الباعثة للحياة، والتعويذة المعقودة دائمًا لرفع الأذى عن بعض المصابين بالأدواء المختلفة.. تحنك أطفال الحي عند ولادتهم، وترقي المصابين بالعين أو السحر، وتداوي الأمراض بما تستجمعه من أعشاب متنوعة، وعندما تعوزها الحيلة تلجأ إلى قطع صغيرة من الحديد المحماة، تلسع بها أجزاءً متفرقة من البدن أو مواقع الألم؛ لذلك يحتفظ لها الناس بالجميل ويكنُّون لها الاحترام والتبجيل؛ عبروا عنه بحزنهم العميق على فراقها.. بالأمس كان شيخنا واليوم هي!

باتت الليالي التالية تثير لواعج الألم والمرارة.. تخيم بظلالها في كل زاوية من زوايا البيت.. أصافح وجه جدتي، أرقب وقع خطواتها على صفحة الأرض الملساء تاركة بصماتها، رائحتها لا تزال معلقة في أنفي، وصوتها الخفيت يهز كياني.. أحيانًا أغفو في لحظات حلم أندس متسللًا بين أقنية الموت إلى حيث كانت تجلس جدتي متربعة، بين يديها مصحفها، ترمقني بنظراتها متحلية بحلة قشيبة بأردية بيضاء، أحاول عبثًا أن أسترد صوتي، أن ألهج بكلمات تفرز حزني والفراغ الكبير الذي تركته أن أنعتق من دائرة الصمت القميئة التي تلفني.. استمر هذا الحلم المستفز لآلامي المتورمة عبر شقوق أنفاسي الهاطلة، سوادًا يغلف المدى فيحيله هيكلًا تصفر فيه الريح.. زارني أحمد مواسيًا فكل محاولاته باءت بالفشل.. عاد إلى صوته المبحوح يتمتم بآيات أخرى واضعًا يده فوق رأسي، ثم يبصق بصفير يخرج من أنفه.. أهتز له كقطعة قماش معلقة على فوهة مدخل يجابه الريح.. يهتز إلى أن يصفع الجدار الأعلى ويعود هاويًا بأطرافه إلى قعر البعد الأسفل منه.. كرياح تمارس النفخ، تجذب حبات الرمل تسفها إلى حيث تشتهي ثم تسوقها بلا معنًى في صفير تقشعر له الأبدان كي تغسل وجه الأرض من أدران البشر.. ها هو أحمد يزفر بصوت تخالطه وحشة تسكنني.. تتغضن تقاطيعه ويزم شفتيه، تعود أنفاسه القهقرى ليكر مرات ومرات.. يطرد أرواحًا تنشب أوهامها

في ذاكرتي المشبعة حزنًا.. أدرك أخيرًا أنه لن يحرك هذا الوجوم، خالني كتلة إسفنجية مشبعة بمياه آسنة وطين لازب يسد مساماتها؛ لتظل أبدًا تتشكل كطحالب مائية تتمدد باستمرار وتقاوم الموت.. أصبحت صورتها لا تفارقني.. قال لي: الشيطان يتربص لك، يزرع في خيالك وجه جدتك، يقودك إلى حيث لا تعلم، ستهوي حتمًا إن لم تعد إلى رشدك وتتجه إلى الله.. أسأله أن يجلو همك.. في النهاية فشل أحمد أن يضع نقاط الفرح والنسيان على حروف المستقبل، حاول بعناد أن يختصر الحزن، أن يخرجني من قعره الذي أسكنه.. لا أدري هل أسكنه أم يسكنني، لغة الموت أصبحت طافية كأوراق خريفية ساقطة في مستنقع تطفر منه رائحة كريهة لمياه قديمة.. عندما يشرع أحمد في مناوراته يقول: لماذا توقفت عن البكاء؟ هل تجمد الحزن كصخرة ملحية تسد أمامك آفاق ما كنت فيه؟ ثم يرتد مذكرًا إياي بآيات من القرآن الكريم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (*) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

خفف من ملامحه الصارمة مُفككًا آخر خطوط قاطنة تتشكل على وجهه كتسجيل موقف لحزن مزور؛ حزن يتبخر تحت سطوة إرادة متحكمة.. أن يضحك.. ينفرج وجهه بالاتجاه إلى الأعلى فتندثر كل

الالتواءات والتعاريج البادية عليه.. وعندما تدعوه الحاجة إلى مُمارسة البكاء أو التباكي، يضغط على جبينه مستلهمًا منظرًا حزينًا أو حالة عسر يعلق عليها أوصابه.. يحملها كحقيبة سفر ربما لأن الموت يعني بالنسبة إليه حالة بقاء وزوال.. لا تمت إلى المشاعر البشرية بصلات، تحفز لديه التمسك بوجوه الحياة المشرقة.. أحتضن داخلي قوائم عريضة لوجوه بشرية مخضبة أحيانًا بالدماء المتفجرة وأخرى تنضح بالأمل والتشبث بأهدابها.. تعاودني أصوات أخرى طافرة بالرجاء والأمل، وأصوات تسترسل في عناء بأصوات تستقصي آخر ما لديها من خامات متوهجة بالحداد أو الفناء..

الموت لا ينفك يستعمر وجه الفضاء المتوهج بغيمات حزينة سارحة.. كان الفقر يتجول في مدينتنا بين الأزقة المتهالكة حاسر الرأس حافي القدمين، مثل وشم قديم ملقًى على خاصرة عجوز تتوسل إلى الموت وتبحث عن رائحته التي تزكم الأنوف، لكنه قلما يأتي.. ربما لأن الفقر والجوع يتربعان على عرش المكان، الموت سيدهما ينأى بعيدًا متواريًا ليوم مباغت تمتد أياديه الطويلة المخلصة، ثم في ليل بهيم يخاتل الناس في مناماتهم.. يخطف أحدهم تاركًا بصمة الحزن والأسى ترتسم على الوجوه وتعبر عنها الألسن اللاهجة بالعزاء في وجوم وقوى خائرة يحتل الخوف أكبر مساحة منها.. رحل أحمد مفزوعًا من أسئلتي العالقة

بالهم الذي يطوقني.. بقيت وحيدًا أنسج أفكاري، أطرزها من نير الأسئلة، انكفأت على نفسي أفكك رموز الأشياء، أنثرها بين يدي، تتحول إلى لغز يستفز يقيني، ثم أستغفر الله وأعوذ به من الشيطان وهمزه ولمزه.. ثمة عنوان كبير لتفاصيل الأسئلة (ما هو الموت؟) ينحدر من أخبيته شلال من الأسئلة الصغيرة.. من هو؟ ولماذا؟ فلا يحررني من حصار هذه الأسئلة المطلة بوجهها القميء إلا صوت المؤذن المرتعش ينسكب في أذني مثل ماء بارد، أهتز له فيبدد لعنة الأسئلة..

أنتفض من مكاني، شيء ما يسقط في روعي، يضغط على أعصابي العارية فيكسوها دفئًا يعيدني كرة أخرى مصافحًا وجه الحياة الصاخب يشتاق بدني إلى الانغماس في بحيرة ماء صافية ترطب عروقي الناشفة وتبلل أنفاسي المحتدمة، أدفع جسدي بيدي النافضتين، أغرسهما في الأرض، أركب بقايا أوصالي المتآكلة، أضع قدمي على حافات الطريق المؤدي إلى دورة المياه، أحس وخزًا يختلج في أطرافي السفلية.. استوقفتني وجوه عرت تضاريسها ممارساتنا البلهاء في مطارداتنا الليلية، ننقل أحلامنا في تقصي آثار دارسة لزمن يموت أمامنا، يلفظ أنفاسه في كل الثواني والدقائق المستطيرة شهوة للانتقام.. بدأت أمتطي صهوة المسافات اللعينة، أصوات تختزل مشاهد تسقط عنوة في ذاكرتي، تزحف كالأفاعي، تمتص دمي، تنبعث من بين أرديتها رائحة الموت عندما

ينجلي وجه جدتي، تنمو ذاكرتي كأعشاب صحرائنا المشوكة، تختلط الأشياء مثل رائحة الشياطين النتنة الناشبة بين أنوفنا ونحن نستحث الخطى الليلية بحثًا عن انتصارات مزورة.. كل العبارات التي تنضح بها مفكرة الشيخ حمود تبخرت معانيها الكبيرة والصغيرة؛ مكتشفًا خطوطًا وتقاسيم غير ذات قيمة.. بدا واضحًا أنه كان يخوض معركة خاسرة، يعتز بركوب مخاطرها وشهواتها النفسية.. تآكلت كل الطقوس والعادات.. سلختها عند بوابات الموت المسطحة وألبستها أردية جنائزية.. تحولت ذاكرة الروح بغتة إلى جسد مسجى على الأرض تنثر فوقه هالة تراتيل تفقد وهجها.. تحترق بصمت ذؤابة الأنفاس الملفعة بسواد قاتم.. اجتزأت صوتي المتآكل معلنًا عن مشاعر مرهفة لتجليات الموقف الجنائزي، تدحرجت تلك العبارات بلعنة الضجر والحزن والكآبة الكاسدة.. بينما كنت في أمس الحاجة إلى روح الشيخ الندية كي ترحم أحزاني المتقشعة، كيف كان الشيخ يلملم أنفاسه وأطراف صوته تسابقه للهرولة هربًا، قلت سائلًا:

– أين تذهب الأرواح بعد استلالها من الأبدان؟ جنت حركات أحمد؛ ممارسًا نظرات الاستغراب البلهاء.. فأجابني بإجحاف متعمد:

إلى خالقها.

لم تكن الإجابة الكافية التي تبلل ظمأ السؤال المتيبس مثل صخرة بحرية مشذبة تمتد بعنفوان إلى أقصى نقطة محرمة تذوب عندها الحدود والفوارق الزمانية والمكانية إلى أبعد من الحمى: (أستغفر الله.. أستغفر الله).. عدت متقهقرًا إلى صمتي، أتجرع طعم الهزيمة المر، حتى الأسئلة تقف قبالتي بأسنان مشوكة يقبع خلفها ألوف من الحراب المنصبة.. ما زالت علامات الكف الغليظة على وجه زميلي في الصف تطبع بصماتها بلا هوادة في ذاكرتي المتثلمة بانكسارات الردة وهزائمها، أتجرع ويلاتها عندما أكبح جماح غطرسة الهموم المزورة، قلت له:

أرواحنا لا تتسلق عظامنا كي تخرج إلى الأبد، ولا تتسلل في ريبة أو خوف أو ضجر.. كل ما هنالك جسد يتجمد، يفقد صلاته بالحياة، لا أحد يستعصي على الموت.. ألا يبعث فيك هذا الشعور المزدوج لجسد يحمل متناقضين: موتًا وحياة، ثم موتًا فحياة؟ ألا يثير في نفسك مشاعر هي أيضًا متناقضة من حيث تريد أن تصرخ في فضاء فيرتد إليك الصوت مضاعفًا في روح أخرى يسمونها الصدى؟ أليست الرحلة الفاصلة ما بين الحياة والموت هي نفسها تعبير آخر عن الصدى؟ عن آخر تنبعث منه الروح على أنقاض جسد آخر؟! استوفز وارتعد..

انتفض من مكانه متجاوزًا كل طقوس الضيافة المعتادة، أمسك بتلابيبي صارخًا في وجهي ظنًّا منه أنني أهذي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! هزني بعنف.. أحس الآن أن دمًا فائرًا يصعد إلى رأسي، دفعته عني، وابتعدت عنه بخطًى حثيثة إلى أبعد مسافة تفصلني عنه، استوحش لحركاتي باللاوعي، أدرك أنه يمارس لعبة الجنون في بقائه الطويل معي.. سقطت في مكاني أرقأ أنفاسي الممزقة، حدجته بنظرات مترعة حزنًا وألمًا أتوسل إليه أن يتركني أجتر لواعج الأسئلة وحدي.. تكسرت أول الأقفال التي كانت تعوق خطواتنا، كلماتي المنزلقة أثارت كوامن كنت أهرب من الوقوع فيها.. كان أحمد الوحيد الذي يبادلني لغة الصمت، يبحث عن كلمات العزاء بين أبجدية الحروف المبعثرة، يقول أحمد: عليك أن تنتزع روحك من هالة الضباب الجاثمة على روحك، الحياة لا تزال بين أيدينا، الموت لغة يعلمها الله وحده، الروح من أمر ربي.. انظر إلى وجهك البائس في المرآة، إنه النعش الذي يشيع الموت نفسه.

أشعل أحمد فتيل الأسئلة داخلي ومضى يزف الحزن وخيبات أمل عريضة لذاكرة لا تعرف الصمت أو السكوت.. يستحث إرادة التغيير في فضاء يحتضنه مبهورًا بقدسية أعماله المباركة.. (يباركها الناس)، كان شجًا يتنامى ممتدًا إلى تفاصيل مشاعر صغيرة متضخمًا كحدسه الذي يسوقه إلى اقتراف عادة التنصت على المنازل النائية محط الشكوك..

كلمة كبيرة نُقشت بعنف على روحه الصادية، طالما شدني بحبالها الغليظة (الأمة)! لا يفتأ أحمد يردد هذه الكلمة! لم أستطع الفكاك من إسارها كشاهد قبر محفوف بعبارات تتقطع ألمًا وحسرة، فينداح أمامنا ملغيًا حواجز المكان والزمان، يضعنا على حافات الكون فيبحر كسفينة تصفعها الأمواج من كل جانب، يزفها أحمد إلى آفاق مجهولة بإصرار وعناد.. يحث الخطى بغية وصولها سابحًا في غيمات سراب تتراقص على صفحة الأرض الجرداء.. حاول أن يغذي هذه الإرادة بعدما لامسته مشاعر عكسها عدم اكتمال قناعاتي بما يرنو إليه ويؤمن به.. أهداني كتابًا بعنوان (الإسلام فكرة وحركة وانقلاب) صدمني عنوانه، أوقعني في ورطة أتحفز للانفلات منها.. الفقرة الأخيرة من العنوان (انقلاب) مشبوهة، استفزت رغبتي بالاحتفاء بالكتاب أن أقف بعناد في مواجهة مباشرة للحركة والانقلاب، العنوان المقلق كصعقة كهرباء، ماذا كان يريد أحمد، ألم تسد جوعه المستعر مغامراتنا الليلية الرديئة، أخذت الكتاب أسكنته في جيبي، كان صغيرًا كأية مؤامرة تبدأ بشفرة وتتضخم بصمت وصخب.. في المرة الأخيرة ولحظات القراءة والمواساة.. كان على غير عادته متوهجًا بذاكرة تنشق في جدل، ينتزع منه صوت الموت المخضل بين عينيه بدموع أستشعر أزيزها، تتفحم الكلمات داخله وكأنه يطرد أنفاس الموت من وجدانه كمس شيطاني حتى لحظة رحيله الأخيرة،

تكشف عن خطواته الخائرة مخلفًا فجوات بركانية تنبعث منها رائحة حرائق كامنة وصخور متفحمة.. تركني أنحدر جدولًا باتجاه بحار متلاطمة، أشياء كثيرة تكسرت على أعتاب الموت.. أثرت حنق أبي وغضبه، يفجعه جسدي المنهك تحت وطأة الحزن، يصرخ في وجهي: جدتك ماتت وكلنا سنموت، لا تقتل نفسك قبل أوانها.

كأنه يريد أن يعيد ترتيب ذاكرتي، الصوت الذي يتلاشى منذ أن التحقت بصميم العمل المنظم، تبدد صوت أبي إلا من إشارات لا تكاد تعني أكثر من الأمر والنهي المختزلين، أمسك صوته بتلابيب الوحشة القاتمة أعادت دائرة الزمن.. لا زلت بين عينيه ذلك الطفل الذي نجا من براثن الموت بأعجوبة.. ربما تجمد الزمن فترة غيابي الطويلة وانغماسه بمدافعة الفقر والجوع والحاجة، يصرف جل وقته في أعمال لا تنتهي إلا حينما يستجمع الليل وحشة الظلمة فيه ويبعث نسائم الخوف المسكونة بالأحلام أو الكوابيس.

– ألم تنظر إلى وجهك، كيف عبثت به أيادي الحزن اللعين؟ انفض غبار الوهم الراقد بين عينيك! الحياة لم تنته بعد، لا تزال في عنفوانها نكابدها.. سحبني من يدي بعزيمته التي لا تعرف التردد

والخور، ثم أجلسني أمام ورقة كبيرة ذات خطوط زرقاء متقاطعة لم أرها قط.

– أنت لا تعرف طبعًا سر هذه الورقة! أومأت برأسي مؤكدًا على كلامه.. انظر: أخذ قلم رصاص رطبه بلسانه وراح يضع دوائر داخل مكعبات زرقاء – هذه الأرض قسمت إلى دورين، المدخل هنا – يضع خطًّا مائلًا وآخر مستقيمًا، وهذا مجلس الرجال يقابله (المقلط)، ثم انظر الصالة: كان يتحدث بمفردات لا أعرفها، انظر يا بني الله يهديك، ركز معي جيدًا.. الصالة تليها من الجهة الخلفية غرفتان: الأولى لاستقبال الحريم، والأخرى ثم توقف.. فحصته بطرف عيني الذابلة أستجدي استكمال توصيف هذا المخطط – توقف لدى الغرفة التالية، قال إنها غرفة أخرى للنساء مسترسلًا، وهذا مطبخ راسمًا دائرة كادت أن تطغى على الخطوط الزرقاء.. وهذه دورات مياه رجال ونساء، فهمت.. وفي الطابق العلوي مقسم أيضًا إلى غرف للنوم وصالة وثلاث دورات مياه.. أفكر أن نبني مسبحًا، ما رأيك؟ لم أنبس ببنت شفة بعد أن كنت منساقًا لإرادة والدي ومحاولاته في انتشالي من مستنقع الوحدة، يلفها حزن ترك بصماته واضحة على كياني، كأن الحديث نوع من المكاشفة

وردم لهوة خلفتها سنوات كنت مسروقًا بتبعية مطلقة للشيخ حمود في كل الدقائق المحترقة على آمال وآلام وهموم أكبر من كينونتنا وقدراتنا.. لم يحاول والدي قط أن يقف حائلًا بيني وبين انجذابي للشباب، كان يرى لمعانًا تقدح به عيناي من انعكاسات الأنوار الراقصة الساحرة فتسكنه طمأنينة تجلو همه في مداومة الترقب والخوف عليَّ، واضعًا ثقته في الشيخ حمود، موكلًا الأمر لله.

الحزن وحده روضني.. ألقى بحباله الغليظة حول أقدامي.. لم أستطع الفكاك منها أو التحايل عليها.. كانت أشبه بميلاد مخاض لم يكتمل.. في الليل اعتلج همي، ويكبر الحزن وتتضخم الوحدة، في أواخر الليل ترتشف وسادتي المكلومة بقايا أدمعي المهزومة، تمطرني برائحتها القطنية ببعض أسئلة ينبت فوقها مثل شقائق النعمان.. كل شيء ينبت فوق القطن: حبات القمح والشعير والحنطة، وحزني وسواد الليل البهيم الذي يجثم فوق هامة الكون.. أستوحش لها.. ترتعد أوصالي من وجه الموت السارح في كبرياء بين بنات نعش.. أركن إلى تعويذتي الليلية.. أمسح على جسدي ثلاث مرات.. ألتف حول نفسي في إحكام.. أللم أنفاسي المبعثرة، وأظل أذكر الله وأتمتم بآيات الخوف والرجاء إلى أن تتبخر مكونات الحياة الصلبة أمامي سابحًا في فضاء أحلامي، تفتح

أمامي طريقًا يفضي بي إلى جزيرة خضراء وارفة، تجلس جدتي متربعة بأردية بيضاء تحتضن مصحفها الذي طرزت له خباءً تنثال منه أعذب التراتيل؛ تتقطر عذوبة وفرحًا.. وعندما ترمقني عيناها البلوريتان يتوقف الصدى وتتوارى كالسحر.. تلملم أرديتها.. تنسحب في هدوء، تضم إليها ألحانها وتراتيلها.. ابتلعت حيرتي وحزني وهزيمتي، وانتعلت الفضاء خلفي أبحث عن مسافات الدروب المعتمة الغارقة بالوحل، كيف أطفو في طين لازب لا أعرف مداه أو عمقه؟ حملت أقدامي الواهنة المرهقة، حتمًا لا مناص من العودة، لن أبقى معلقًا كشرنقة، استسلمت لحتمية العودة، كاد الوحل يمسك أقدامي، يغرقني في أغوار سحيقة.. أثقلني الوحل، عصرني بقبضته الشرسة، كدت أختنق، أفقت من حلم وكابوس، تصاعدت له أنفاسي وتفصد العرق من جبيني، أفقت أتلمس ملامح وجهي بين سدف الظلام الحالك، كان الليل لا يزال يزجي ذؤابة أحزانه ممتدًا إلى آخر طفرات السكون المتقطعة بنوبات السعال وآهات تسلق الجدران الوطيئة.. شيء ما استقر فجأة ساقطًا كحجر ثقيل جاثم انتفضت له فرائص الكبار قبل الصغار، واستطارت له قلوب النساء المتحفزة دائمًا للبكاء، صوت حرريني من كابوس الليلة المضنية، ربطني بأواصر الحياة، اندفعت من مرقدي أتلمس طريقي إلى قابس النور،

ارتديت ملابسي وانطلقت قبل أن أقذف بجسدي إلى قارعة الطريق، صدمني أبي مفزوعًا من هول ما اخترق أذنيه كرصاصة حارقة، قال لي:

– لحظة نخرج معًا.

أمسكت بطرف الباب متحفزًا للخروج، وفي لحظات انطلقنا نستحث خطواتنا لالتهام الحدود الفاصلة بيننا وبين مصدر الصوت.. كانت ثمة أجساد لا تميزها متجهة تسابق الأنفاس لمعرفة الحدث.

عندما تناهت أقدامنا عند حافات اللجج ولغط الرجال ملتفين، تدلت أعناقهم إلى الأمام.

– احملوه إلى المستشفى.

– اتصلوا بالشرطة.

– قربوا سيارة تسعفه، الوقت ليس في صالحنا، وقفت ملتصقًا بالأجساد المتعضنة، تسلقها عيناي حيث يتجلى المشهد عن دم نافر استشرى كبقعة زيت تعكسها إضاءات خافتة تسللت عبر فرجات الأجساد، وجثة هامدة.. الصوت مرة أخرى:

– أظنه لفظ أنفاسه الأخيرة، قذف بآخر كتلة دم حبستها أنفاسه؛ متيبسًا بين أيدي الرجال، تصاعدت رائحة الموت بين أنوف الرجال وحلوقهم، تعالت أصواتهم تستنبئ عن القاتل.

– من رآه منكم؟ من يستطع تذكر ملامحه؟

صمت استعمر الجميع بعيون شاخصة.

– ليسلك كل رجل منكم طريقًا يتلمس فيه خطوات المجرم لعله لا يزال مختبئًا في مكان ما، انبرى خمسة رجال للبحث.. اتجه كل واحد منهم في طريق، وعندما ابتلعت الظلمة خفقات أقدامهم، انبعث منها رجل لا نعرفه سائلًا عن أكبر الرجال مقامًا ومنزلة، وفي أقل من ومضة عابرة امتزجت الأصوات بأزيز صوت هادر ينفث به محرك سيارة الشرطة.. ترجل ثلاثة رجال شرطة، اثنان اخترقوا الجموع المتراصة بأعين تشمر عن فضول يعيد إلى حياتهم المتبلدة رونقها الخابي.. دوَّن الشرطيان محضر الجريمة، بينما الشرطي الثالث يسجل أقوال بعض شهود الجريمة.. إذ لم يكن ثمة شهود يستحقون عناء التقصي والبحث، أو حتى مجرد التأمل في أقوالهم، خلا الرجل الذي ظهر فجأة يسأل عن كبير الحارة التصق بالشرطي الماثل في حضرة جريمة استفزت

مسؤوليات رجل الأمن، الجميع يتابعون عن كثب كل شاردة وواردة، خصوصًا الحديث الهامس بين رجل الأمن والرجل الغريب، على أثره انطلقا بسيارة الشرطة إلى جهة غير معلومة، بينما الشرطيان الآخران ظلا ينتظران سيارة نقل الموتى.. كانت الدقائق تحترق كشموع تتلاشى رويدًا رويدًا، ورعشة الموت تفرق أرواحهم الساقطة كأوراق خريفية ذابلة.. فجأة ندت صرخة نسائية انطلقت كرصاصة خارقة من استمرار أزيزها إلى أن انكبت المرأة تلملم فاجعتها بمصرع زوجها ونهاية لا تدخل في حسابات القدر الاعتيادية، تراجعت زفراتها شيئًا فشيئًا مخلفة وراءها وجهًا كظلال ساقطة ترسم ملامح مفزعة.. لم تستطع أن تكسر صمت الوجوه المتبلدة.

كان مسرح الجريمة سؤالًا كبيرًا تقدح به أعينهم، استعصت عليهم كلمات العزاء من هول الفاجعة، كانت ليلة تعلن عن ميلاد يتفجر من دمائهم النافرة باستقبال عهد يمرق كالبرق أمام أعينهم، يتمخض عن مستقبل سيحرك أوصال المدينة المتربعة على هامة الفقر والجوع كتعويذة ساحرة شمطاء.. الحكاية: الأخ يصدر حكمه بإعدام أخيه نحرًا على مسافة ليست بعيدة عن بيته، ارتطم بحائط الظنون التي أسفرت عن مؤامرة حاكها ضده انتقامًا لاستيلائه على شق منزل عتيق علم فيما بعد

أنه سيدخل ضمنًا في حيز المنازل الأخرى الخاضعة للتثمين.. أثار حنقه منظر الأموال المنهالة كالسيل في جيوب أخيه، ستنفذ به من رحم المأساة والجوع والفقر إلى عالم يتدفق نضارة وإشراقًا، عبرت هذه الخيالات الشيطانية رأسه ليتفجر بدماء حارة، ثم يحمل غضبه في هزيع من الليل تتشظى داخله عتمة؛ ليهوي على صدر أخيه بعدد من الطعنات ويولي هاربًا.. اعترف المجرم، جاء حالًا وطوعية.. قطع الطريق على حكايات مزورة وسد الأفواه الجوفاء.. عرت تلك الليلة حيرتنا ودهشتنا الآبقة.. حاولت استخلاص صوتي من صورة المشهد الكئيب وذلك الطعين المجندل على الأرض.. صورة الموت تتلاشى في أعماق الرعب المعلق في أعين الناس المهزومة لتتجسد في دماء مزروعة على قارعة الطريق، ترسم أولى خطى الحقد، تنبئ عنها بعض المنازل المثلومة تحت وقع ضربات الجرافات العاتية لشق الطريق الفسيحة وغرس الإنارات الشامخة..

كانت اللحظة التي قدحت شرارة العودة إلى تضاريس الحي ووجوه نحت فيها الزمن علاماته وطقوسه.. أخذتني هموم متوترة ساخنة تعبر دماغي.. ثلاثة وجوه لمعنًى واحد: الموت، والقتل، والحزن.. أبدو بينها كنسيج هلامي بلا شكل أو لون أو رائحة.. داخل تجويفات الحارات المفعمة بروح مختلفة تهب بها رياح التغيير جلَّت معنى الخطوط الزرقاء

على أوراق أبي الصقيلة.. هي جزء من خطوط عريضة لمستقبل يهم بالارتماء عنوة في نفوس الرجال المنهكة وأعينهم غير المكترثة، تزرع فيها رغبات فاضحة تحفزها شهوة مكبوتة عُرفت متأخرًا.. سألت أخي عن المنازل الداخلة ضمنًا في موجة التثمين.. أخبرني أن منزلنا أحدها واسترسل يعدد المنازل الأخرى والمنازل المقفلة على صمت يلفها بعد رحيل سكانها والفراغ الكبير الموحش الذي تركه الراحلون يصفر على لمسات الرياح وقرع نوافذه المشرعة بأكثر من روح منتظرة ساعة الإبادة لماضٍ تضرب تفاصيله في أعماقنا، الأحياء تموت، تنحر كليلة القتل المشهودة، يخيم على كاهلها صمت انطبع على الوجوه.. تلاشت حكايات الناس الصغيرة والكبيرة تمثل فراغات الناس في لياليهم الفارغة التي لم تعد تحرك وجومهم؛ انتظار ساعات الرحيل، وترقبًا للجان التثمين حاملة مخططات تكشف عن الموعودين عفوًا بأموال لم تدغدغ أحلامهم من قبل.

هرعت إلى مكان قصي من المنزل.. كانت الغرفة الوحيدة التي لم تفض أسرارها إلا عندما أفضت جدتي.. انزويت في أحد أركانها، أنثر آهاتي المُترعة محملًا بنزق الماضي وعنفوانه ورهق السنة المرة، حاولت أن أكبح جماح الزفرات المتصاعدة كالجمر منسكبة على وجنتي الصفراء.. يتجلى صوت أبي زاعقًا في وجهي يهز بقايا الأمل المعقود بي ينهرني..

انظر إلى وجهك في المرآة ترفرف فوقه أرواح موتى وأشلاء ودماء، أحلق ببصري في الزوايا الغارقة في سرمدية تكشف بعض أدواتها أشعة الشمس الناضحة منذ ساعات النهار الأولى فتعيد صياغة لغة الدم النابض في وجوه الناس، أصبحت الحياة تجتر أنفاسًا ثقيلة ترتدي ثوبًا موشًّى بالكراهية منذ أن تساقطت النقود بلا سابق إنذار في جيوبهم.. اختلت نوايا نبرات الزحف إلى مساحات من البرية الجرداء المحيطة بالمدينة في جهاتها الست.. أصواتهم الراجفة، كلهم يتحينون ساعات الانعتاق من أرواح الشر الماثلة بين أعينهم والتحلل من ربقة ذاكرة مكتنزة إلى فضاءات مهجورة لا يسكنها سوى أولئك الغرباء الهاربين من أنفاس البشر المتطفلة.. كانت الوحدة تلفني بعباءتها الكئيبة وصمت الأحياء المهجورة إلا من قرع نوافذها بين أيدي الرياح العابرة، كانت قبل برهة من الزمن مفعمة بالحياة، مكتنزة بأرواح تتجاذب لا إراديًّا محدثة أسبابًا للعيش والرغبة في استمرار الحياة، أما اللحظات الأخيرة لصوت الوحدة المحدقة في فضاء يدفع الموت عن وجه الحياة فكانت رهيبة وغادرة، كل يوم ينتزع عن وجه أديم الحي وصوت يميزه.. كلهم ينتظر ساعة الانعتاق هربًا من وجه الفقر المُعشش فوق كاهل الأبنية القديمة.. يحلمون بيوم الفرار من لعنة رائحة الموت والقتل ومسرح الجريمة؛ فلم تزل صورتها

تحتضنها الأذهان.. (عيوش) وحدها أمعنت في تحكيم رأيها رافضة كل محاولات أولادها الستة في الرحيل.. تصيح بأعلى صوتها:

ارحلوا ودعوني وشأني، لن أرحل معكم، سأموت في بيتي.. وتذهب كل محاولاتهم أدراج الرياح.. وحدها التي ظلت متشبثة بلغة الحياة التي هجرتها كثير من الأفئدة، ترسم خطواتها إلى حيث تشاء من الدور المتراصفة.. تعرف تفاصيل حياتهم، وتدون بذاكرتها الفذة تواريخ ميلادهم، وحدها تبكي عندما يهم الناس بالرحيل، تقضي اليوم معهم في تشييع آثار أقدامهم إلى حيث لا نعلم، وتظل تبكي إلى آخر قطرة دمع تجود بها مقلتاها.. شاخ وجهها النابض بالحياة مستنفذة كل التعاويذ والتسابيح ورائحة الماضي وأسئلة الحاضر.. عندما استشرى خبر قرب موعد رحيلنا عن الحي انكبت عيوش بين يدي والدتي ببكاء وزفرات متهدجة بصوت الحنين المرتجف بين شفتيها.. من لا يعرف عيوش؟ أو لم تنقش في ذاكرته من تفاصيل حياتها الشيء الكثير؟! كانت كالريح الطيبة ترسل أنفاسها المضمخة برائحة الماضي، المكونة من معجون أجد شيئًا من تباشيره في ثياب صلاة أمي كل صباح، عيوش تسقط بين يدي والدتي تنتحب على زمن يهرب من بين يديها كحلم جميل يراود الأهداب، تسقطه بلا أسف أيادٍ غاشمة.. من يشفع لعيوش بين أيادي التغيير العابثة في وجه الحي والأحياء الأخرى المجاورة عندما كانت هي

نفسها تحل في أي دار من الدور تحمل معها شفاعاتها: تجبر المكسور، وتعين المظلوم، يحبها الصغار، ويبتهج بها الكبار نساءً ورجالًا؟ وعندما أخذ الزمن دورته مُكشرًا عن أنياب حادة تحملها الجرافات وتصفع بها بلا هوادة وجوه المنازل المزركشة بألوان مختلفة تتكون من لون الطين وصفار أعواد التبن ومسحة من الجص الأبيض، وخطوط من نزق الأطفال وعباراتهم السمجة.

لم ينجُ منها حتى بيت عيوش الذي تمزق إلى أشلاء لم يبقَ منها سوى غرفة داخلية أصبحت أشبه بالمغارة تأوي إليها عندما يجيء الليل، وفي النهار تختلف إلى بعض الدور التي لا تزال تترنح تحت وطأة الملل انتظارًا لفرصة مواتية للهرب من وجه الحي الذي أصبح بلا ملامح سوى بعض التفاصيل الصغيرة من ماضٍ يلتهمه واقع مريع.. كانت عيوش بقية الأمل لحياة زائلة لا محالة.. عندما تصافحها عيناي أحس أنها تتنفس وجه جدتي ورائحتها، على الرغم من الحزن المعلق بين أهدابها.. احتضنتني واحدًا من أبنائها الذين لم تعد خطواتهم تحقق في الحي كما كانت! هجروها كالأموات فكنت ألتمس احتياجاتها اليومية كما كان يفعل بعض أهل الحي الطيبون.. كنت أركن إليها برهة من الزمن أحملق في وميض عينيها السائحتين في عالم مختلف له سحره وجلاله، تجاورني بروحها الملائكية وكأنها تنسل من دوحة جنان وارفة،

أغوص في سواد عينيها الناصعتين فيتراءى لي مشهد ساحر خلاب يبدأ من نخلة تطل من زاوية الحدقة اليمنى محملة بالرطب وعلى جانبها حافات جدول ماء يجري باتجاه معاكس إلى أعمق مسافة من حدقة عينها.. تخيلت أن دموعها التي لم تكن تفارقها طرفٌ من هذا الجدول المتدفق.. أسمع صوتها قبل أن تبوح بحكمتها النافذة، ونظل معها نردد ما تتفوه به أيامًا وتحتفي بها النساء أكثر في توجيه فتياتهن تقول:

– البنت على ما تعود، والولد على ما يصاحب.

– النهار يكشف الغشوة.

وفي صبيحة يوم شاتٍ، شهدت ليلة احتفائية ممطرة استوفزت لها القلوب الوجلة مخافة انهيار البيوت التي أكلت أجزاءً منها معاول الهدم.. في تلك الصبيحة، لم تخرج عيوش من مغارتها كالعادة، فلم نسمع حفيف أثوابها وعباءتها باهتة السواد.. لم تخرج يدها في عنف تطرق الأبواب الغافية، كل شيء بدا يتجه عكس الزمن، كان الحدس الذي يدور في أدمغتنا أن الأمطار المفعمة بالبرد حبستها، كانت أمي تضرب كفًّا بكف توجسًا وخوفًا تلمع به عيناها الحاسرتان عن قلق مستبد وألم يقبض على مجامع صدرها:

– بالله عليك يا ولدي اذهب إليها فلربما أصابها مكروه، أخذتني رأفة انتزعت بقية أمل تحتضنه أنفاسي.. ركبت أوصالي الرطبة منتهكًا سكون الشارع إلا من رائحة البرد الذي يخترق أنفي بلا هوادة، طوقته بشماغي كي لا ينفذ البرد إلى رئتي المنهكة بالسعال، وحجر يجثم فوق صدري مانعًا مرور الهواء بحرية.. صرت أحث خطواتي إليها بحذر، متلافيًا فوهات البيارات وبقايا المياه الآسنة المختلطة بما جلبته الأمطار من قاذورات وطين لازب كي لا أنزلق داخلها ككرة ماء.. وقبل أن أصل انسكب في أذني فجأة صوت متشنج ارتعدت له فرائصي ينحدر من جهة بيت عيوش، كان صوتًا يتأبط فاجعة.. ركضت مثل غيري نسابق أرواحنا المكدودة، ذلك الخوف المطبق بين أحداق أمي ونبرة صوتها المتهدج: صوت يربط الموت بأوصالنا المتلاشية وفي أعماقي تذوب كحبات ملح تتشربها عروقي.. لقد هوى بقية جدار منصوب من بيت عيوش، سادًّا فوهة المغارة، صار الرجال يكدون جهدهم في إزاحة ركام كتل قطع اللبن الطامرة لانتشالها، والأمل الضئيل في إنقاذ حياتها يستحثهم لاستنفاد طاقتهم، اقتربت أمد يد العون بأمل ضئيل يغذي انتفاضتي لمشاركة الرجال في حمل اللبن المشبع بالماء مما زاده ثقلًا إلى أن

تبدت قطعة قماش حمراء داكنة تتعلق في قطعة لبن صرخ أحدهم:

– عيوش عيوش.

انقض الرجال يدًا واحدة ينهالون بأيديهم لتفتيت بقايا اللبن بغية انتشالها.. توقفت قلوب الرجال وحبسوا أنفاسهم وشخصت أبصارهم وأيديهم تتلمس جسد عيوش من ثغر المغارة إلى أن سقطت على كتلة لحمية ثقيلة:

– شدوها إليكم لا تتركوها.

كانت ثقيلة مما يوحي بجسد فارقته الحياة.. ارتجفت العبارات بين شفاههم ثم انطلقت مستشرفة عبارات العزاء: لا حول ولا قوة إلا بالله.. البقاء لله وحده.. الله يرحمك يا عيوش.. وأعينهم تلاحق منظر الموت من بين عيني عيوش الشاخصتين، أطبقهما أحد الرجال برفق.. وقفت في هيبة ووجل، صرت أرتجف والعرق يتفصد من جبيني وبرودة تخترم جسدي إلى العظم.. منظر وجه عيوش يكشف عن احتفالية مهيبة عن حياة تسحب بساطها من تحت أقدام الناس.. خلتها تنثر آخر كلمات الوداع من بين شفتيها المتورمتين أو أن روحها تُحلق فوق رؤوسنا

تنثر آخر كلمات عيوش تصبها في روعنا.. فكرت أن أفصح عن شيء ما، لكنَّ خوفًا ما عقد لساني.. فكرت أن أصرخ في وجوههم التي هزمها الموت ملقيًا بظلاله وجبروته فوق هاماتهم المتدلية إلى الأمام استسلامًا لأيادي العبث التي تضعهم بين يديه عنوة، فكرت أن أقبِّل جبينها الغض وأمسح بيدي المرتعشة وجهها الذي اختزل الزمن في لحظة انتصار عظيمة.. أن أجتز عقائصها الرطبة وأحلها ثم أنثر خصلاتها بين أعينهم لتبقى وسمًا لا يمحوه الزمن، يشرخ المرآة أمامهم كاشفًا عن معدن الأيام التي ستهبها رياح التغيير.

**اقرأ الآن إصدارات الكاتب محمد المزيني**

**في دار بسمة للنشر الإلكتروني**

# دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هـذا العمـل الإبـداعي برعايـة داربسـمة للنشـر الإلكتروني
بشـــراكة مـــع جـــروب ملتقـــى الأقـــلام المُبدعـــة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لداربسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيســـبوك، اضـــغط علـــى الأيقونـــة.

# المحتويات

مفارق العتمة ..... 6
آيات الخوف والجوع ..... 8
شيء من لغة الفصول ..... 28
وجوه لا تغيب عن الذاكرة ..... 34
أنفاس الليل ..... 40
لحظات للفرح ..... 47
شيء من تعاليم الفصول ..... 54
الساحر الصغير ..... 85
عام جديد ..... 89
نقطة تحول ..... 97
الحركة والتغيير ..... 103
القادة الجدد ..... 107

البحث عن المستحيل ..... 115
وقت للسؤال..... 135
للقلب رسالة مختلفة..... 137
رقابة صارمة ..... 154
وعي الذاكرة ..... 168
رائحة الموت..... 175

# مفارق العتمة

صفحات تنضح برائحة أحلامنا في نزق إلى مستقبل نجهله . يشدنا الماضي حيث كانت ولا تزال خطواتنا تدب بين جنباته. نحلق كالفراشات . نزف حكايات صغيرة مختزلة تملأ فراغات عقولنا , وتهوي بنا بين عقارب الساعات غير المحسوبة. تعصرنا. تشكلنا . تقذف بنا في رحم عالم نراه يكبر كالمنطاد ، يحجب الكون ، فنشمر عن سواعدنا بشغب. نمتطي صهوة أحلامنا التي لا تلبث أن تنفجر كفقاعة صابون. تعترينا خيبات صغيرة ؛ نقفز فوقها سريعًا. نلملم أوصالنا المبعثرة كأهازيج ليلة عرس موشحة بخيوط ضوء القمر؛ فنبدو كأطياف ليل مهجور تصفر به الريح بين مفارق العتمة

محمد المزيني

bassmabook
00212771814934
bassmabook@gmail.com